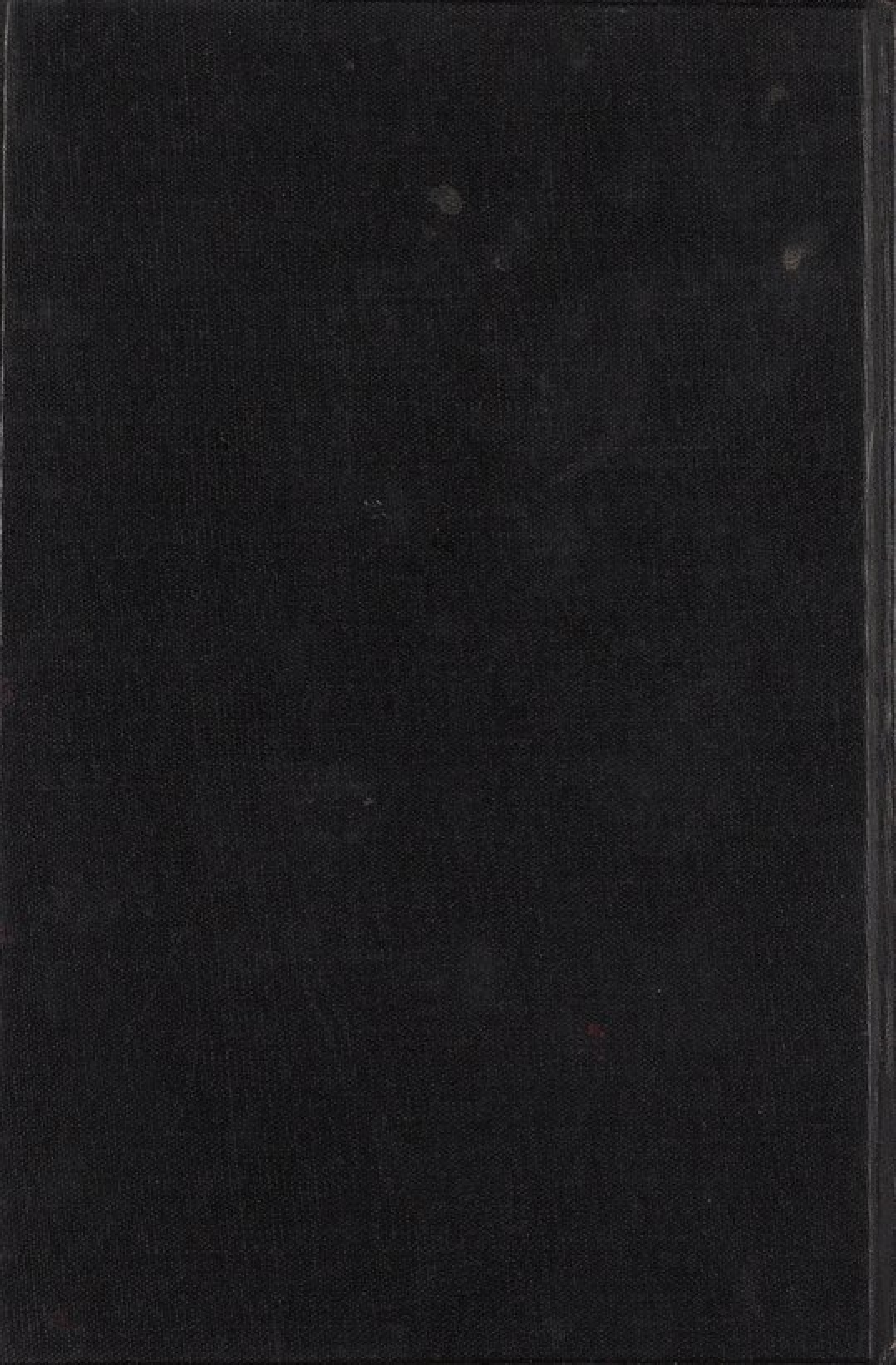
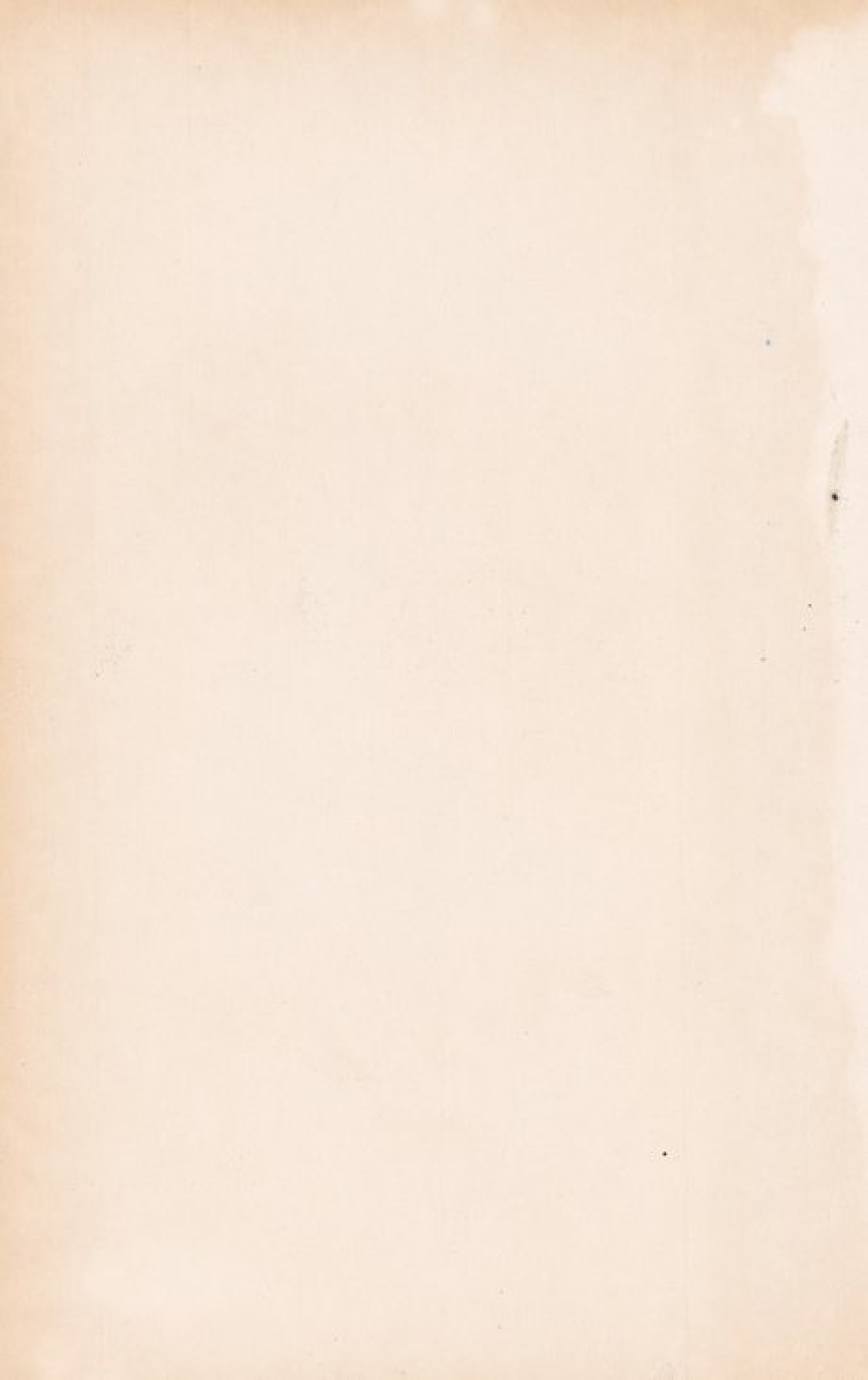
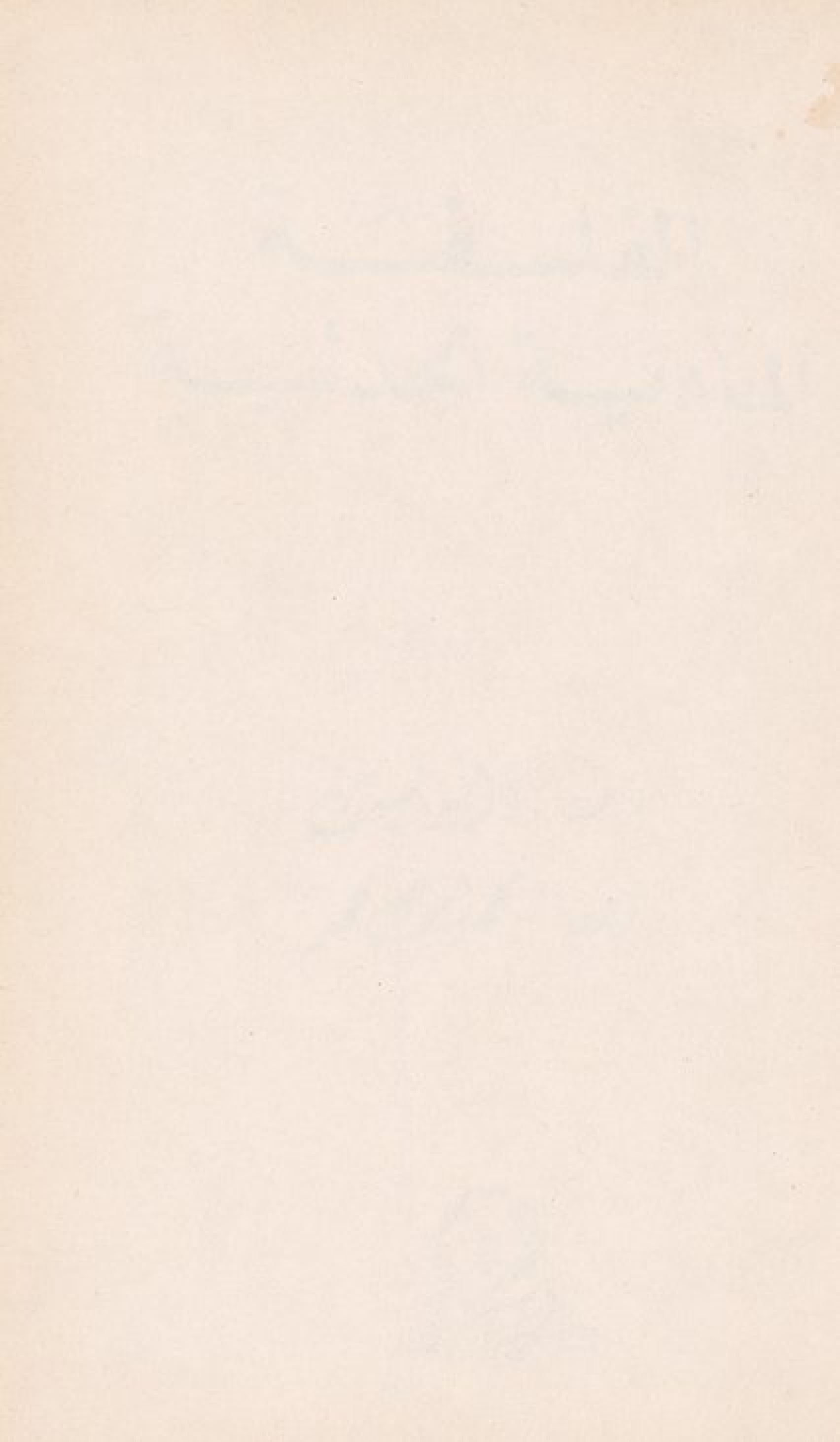
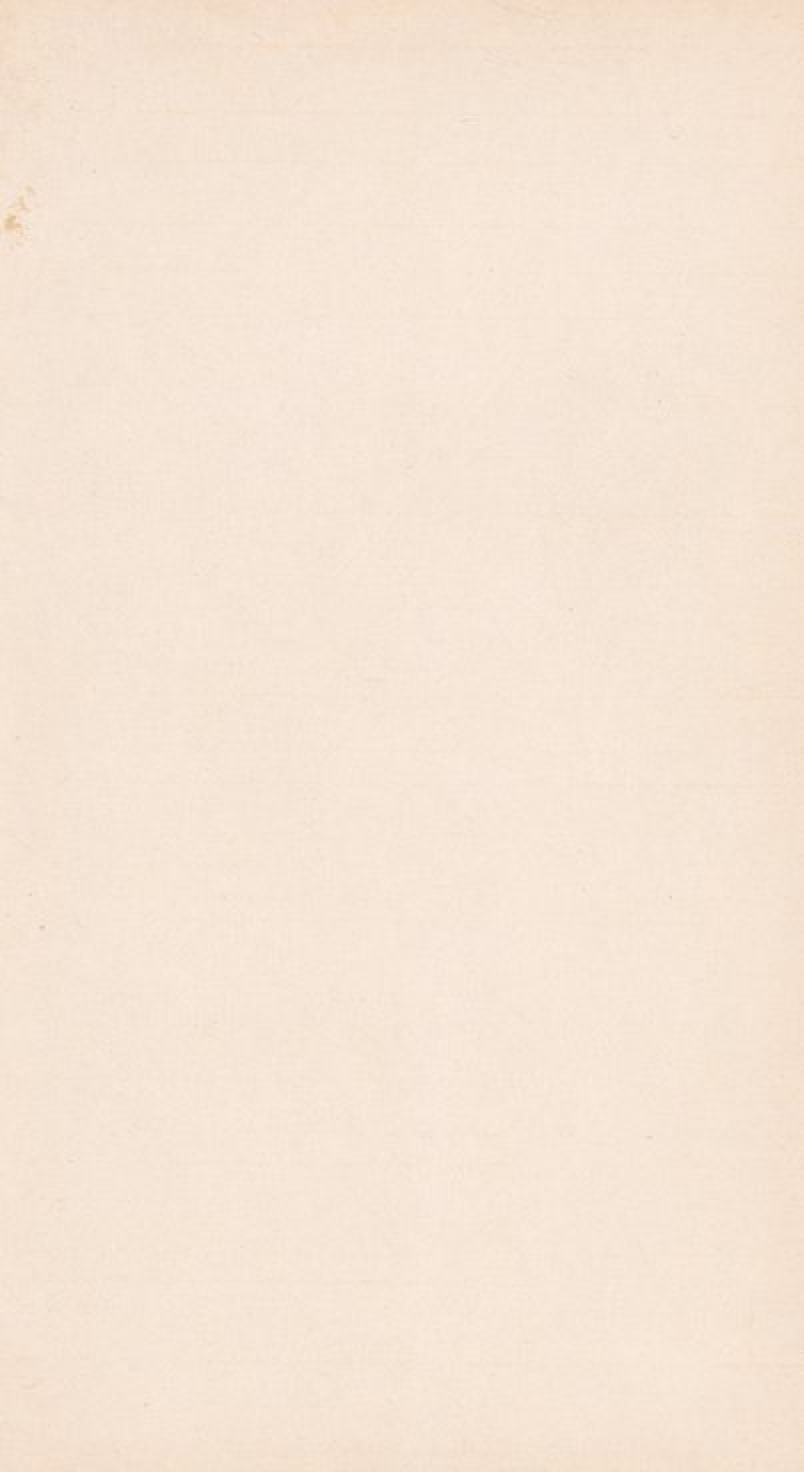










الفلسفة المادية الجدلية

تأليف داڤيد جست

ترجمة محمد اسماعيل محمد





مقدمة

دافيد جست ، مؤلف هذا الكتاب ، فيلسوف انجليزى شاب ورياضى نابه. حصل على درجته العلمية من جامعة كامبردج ، ثم عين محاضراً للرياضيات ، فى كلية سوثمبتن ، وظل يعمل بها إلى أن قامت الحرب الأهلية فى أسبانيا ، فتطوع لمحاربة الفاشية وسافر ، رغم محاولات بعض أصدقائه لاثنائه عن هذا العزم ، إلى ميدان القتال حيث خر صريعاً عام ٩٣٨ ؛ فى سبيل الحرية والمبادىء التى آمن بها . ولم يتجاوز من العمر إلا سبعة وعشرين عاماً .

ويتألف الكتاب من محاضرات كان قد ألقاها المؤلف فى قاعة ماركس التذكارية بلندن قبل رحيله للدفاع عن الحرية . وأعد المخطوط من بعده للطبع الاستاذ جاكسون مؤلف كتاب « الجدل » . وموضوع الكتاب هو الفلسفة المادية الجدلية وهى التعليل العلمى الفلسفى للعالم المادى المتغير ، أعنى نظرة إلى العالم المتطور قائمة على المعرفة الانسانية . وسميت بهذا الاسم لأن اسلوبها فى النظر اسلوب جدلى يتناول بالتفسير والدراسة العالم المادى وما يجرى فيه من حوادث . ونقطة البدء فيها هى الكون الطبيعى ومظاهره المتعددة والكشف عن العلاقة المتبادلة بين شتى الحوادث والقوانين التى تنظم تبدلها وتطورها .

فاذا صح ان معرفة العالم الطبيعى المادى ممكنة ، وان الكشف عن قوانين تطور هذا العالم أمر يمكن التوصل إليه ، نتج عن ذلك ان معرفة قوانين التطور الاجتماعى هى بدورها معرفة ممكنة ، وان المعلومات التى تقدمها العلوم الاجتماعية صحيحة ومقبولة . لذلك يجب أن يصدر نشاطنا العملى فى شتى الميادين لا عن الخيال والتأمل فى أكوان من خلقنا ، بل عن النظر إلى هذا الكون الذى نحيا فيه . ويجب بالتالى أن يؤسس عملنا السياسى ، لا على الرغبات المحمودة لنخبة من الأفراد ، ولا على مقتضيات « الأخلاق الكلية » ومبادىء العقل الانسانى المجردة ولا على راج

مثالية ومشاريع خيالية منفصلة عن حياة المجتمع الواقعية ، بل على الظروف الواقعية لحياة المجتمع المادية .

وعلى هذا النحو تصبح السياسة علماً ثابتاً مستنداً إلى قوانين واقعية صحيحة ، وتصبح الرغبات التى كانت فيما مضى حلماً بمستقبل أفضل للانسانية أهدافاً متبلورة يمكن السعى إليها ، ويمكن تحقيقها إذا صدق هذا السعى . وبذلك تلتئم الوحدة التى طالما حطمتها الفلسفة العتيقة ، بين الفكر والواقع ، بين العلم والعمل ، بين النظر والتطبيق . وتصبح الفلسفة الحديثة ، المادية الجدلية ، خلافاً للميتافيزيقا أشد ما تكون صلة بالحياة وألزم ما تكون للنشاط الانسانى .

وليس معنى البحث عن أصل الأفكار والنظريات فى الحياة المادية للمجتمع ان هذه الأفكار والنظريات والآراء السياسية ليست لها خطورة أو أثر فى الواقع المادى . فهى وإن كانت تتولد منه إلا أنها تؤثر فيه ، فيما بعد ، تأثيراً يكيف تطور العالم المادى ويرسم أهدافه . فلكى لا نخطىء اذن فى السياسة ، علينا أن نستند فى عملنا إلى نظرية تنعكس فيها بدقة حاجات تطور الحياة المادية للمجتمع .

تلك هى الغاية التى كتب المؤلف من أجلها هذا الكتاب ، فقد أراد أن يضع أمام قراءه الأساس النظرى للنشاط العملى ، ولا نقول انه قد حقق هذه الغاية على وجه تام فنخرج بذلك عن أبسط مبادىء الجدل ، ولكنها محاولة جيدة وان لم تبلغ حد الكمال . ورجاؤنا أن تقوم فى لغة العرب محاولات أخرى تفيد من هذه وتعمل على انمائها وتكميل النقص فيها .

أما الترجمة ، فقد راعيت الدقة ، دون تعسف ، فى كل ما نقلت ، ولكنى اضطررت فى بعض الأحيان إلى ترك جمل قليلة وفى أحيان اخرى إلى حذف فقرات محدودة ، ولكن هذه وتلك لا تمس صلب الكتاب فى شىء ولا تفوت على قارىء الترجمة شيئاً من الفائدة التى رمى إليها المؤلف من وراء كتابه ، اذ انها على قلتها كانت أمثلة لحوادث بعيدة عن محيط القارىء العربى . وكل ما أرجوه أن أكون قد وفقت فيما نقلت ولم أخرج عن جوهر المعنى ؟

المترجم

٢٤ فبراير ١٩٤٦

الباب الأول

نظرتان إلى العالم

« ان المسألة الأساسية الكبرى فى كل فلسفة ، وعلى الأخص في الفلسفة الحديثة ، هي التي تتناول علاقة التفكير بالوجود » .

انجلز .

التفكير والوجود

(١)

المادية فى مقابل المثالية

رأينا أن الأساس النظرى للحركة التحريرية الحديثة ، الاشتراكية العلمية، يتضمن نظرة علمية إلى العالم . متصلة ومتعددة الوجوه . هذه النظرة تختلف من التصورات التيولوجية (١) أو الصوفية فى انها تبحث عن تفسير طبيعي لكل الظواهر بما فى ذلك ظواهر المجتمع البشرى. وعلى اساس هذا الاتجاه كان اصطدامها بالنظرة السائدة فى المجتمع البورجوازى (٢) أمرا لامحيص عنه.

ومن ثم نجد تصادماً حديثاً فى صورته ، قديماً جداً فى جوهره . ونقطة البحث هى ما يطلق عليها انجلز بحق « المسألة الأساسية الكبرى فى كل فلسفة » . ويستمر فى شرح صورتها الحديثة بعد أن يبين أن أصل هذه المشكلة يوجد فى التعريف التيولوجى

---

(١) تيولوجى بمعناها الشامل تتضمن الآراء الدينية والفلسفية التي تفسر الكون ومظاهره بارجاعها الي عقل كلي أو روح عليا والتي تتحدث عن اللاهوت وصفاته وعلاقته بالطبيعة والانسان والأكوان الاخرى وعن حدود لمعرفة الانسانية فى هذا المجال . (المترجم)

(٢) البورجوازية : بنمو التجارة ونشأة الصناعة الكبيرة ظهرت فى المجتمع الاقطاعي قبيل زواله طبقة جديدة تغلبت على أمراء الاقطاع وانتزعت منهم آلة الدولة لادارتها وفقا لمصالحها التى كانت تناقض مصالح أمراء الاقطاع . تلك هى الطبقة البورجوازية التى تسيطر الآن على معظم بلاد العالم ماعدا الاتحاد السوفيتي . والمجتمع البورجوازي هو المجتمع الذى تحكمه هذه الطبقة . (المترجم)

«للروح» المشتق اشتقاقا كلياً من خرافات البدائيين الساذجة يقول :

« ردود الفلاسفة على هذه المسألة تقسمهم الى معسكرين كبيرين . قوم يؤكدون تقدم الروح على الطبيعة وعلى ذلك افترضوا آخر الامر خلق العالم على أي نحو من الانحاء (ومن بين هؤلاء الفلاسفة هيجل مثلا ، وهذا الخلق يكون في أغلب الاحيان أشد تعقيداً وأكثر استحالة منه في المسيحية) ويؤلفون معسكر المثاليين. أما الآخرون الذين يقولون بتقدم الطبيعة فينتسبون إلى شتي المدارس المادية .

وليس لهذين التعبيرين ، مثالية ومادية ، في أساسهما من معنى خلاف ذلك ، ولم نستخدمها هنا أيضاً في غير هذا المعنى . أما الخلط الناشيء عن تضمينهما معنى آخر فسنبينه فيما يلي » . (١)

ومن المستحيل ان نزيد اهمية هذه التفرقة بين الفلسفة المادية والفلسفة المثالية تأكيدا . فقد أقرها كل المفكرين المتزنين ممن ينتسبون لأى «المعسكرين» . وتظهر هذه التفرقة أحيانا تحت اسم «المذهب الطبيعى فى مقابل المذهب المتعالى على الطبيعة» . وأحيانا يسمى الضدان «بالمذهب الواقعى» و«المذهب المثالى» . ولكن التفرقة (دون ان نسىء فهم مبحث الباب الثامن) توجد دائماً بين الفلسفة التى تمجد العقل والافكار والروح ، سواء أكانت بشرية أو «الهية» ، وتسمو بها عن المادة المجردة والظروف الخارجية (كما تفعل الفلسفة المثالية) والفلسفة الأخرى التى تعتبر هذه العمليات الذهنية ثانوية ، غير مستقلة ولم تظهر الا فى دور معين من نشأة العالم المادى (وهذا ما تذهب اليه الفلسفة المادية).

ولن يغيب عن البال أن هذا الاستخدام الفلسفى للفظين «مثالية» و«مادية» يختلف تماما عن استخدامهما العامى الشائع . فالفيلسوف المثالى قد يصير ، وهذا ما يحدث غالبا ، «ماديا جشعا» فى المعنى الشائع . ولكن ليس ثمة ما يمنع الفيلسوف المادى من اعتناق مثلا عليا سياسية اذا كانت تقوم على اساس علمى . وهذا هو الخلط الذى نبهنا اليه انجلز فى الفقرة السابقة.

(١) انجلز . لودفيج فويرباخ الخ صفحة ٣١

(٢)

الأسس المنطقية للمذهب المثالى

لعل الفلسفة المثالية تستمد أسسها من التصورات التيولوجية للعالم . ولكنها تستند اليوم بوجه عام الى حجج لها طابع منطق ميتافيزيقى . ويحاول المدافعون عنها أن يظهروا ان طبيعة المعرفة الانسانية ذاتها تقود إلى نتائج مثالية. ولكن المادية بعقيدتها الراسخة، فى العالم الخارجى تصبح فى نظر هؤلاء المدافعين مجرد تمسك باحكام سابقة لن تصمد أمام النقد الذهنى . ولنلقى نظرة على نوع الحجج التى تساق لتأيد هذه الفلسفة المثالية.

اذا تصفحنا أى كتاب حديث مطروق فى الفلسفة نرى ان الحجة تبدأ بخلق جو معين من الشك (١) .

وعلى هذا النحو يبدأ جواد فى كتابه «دليل الفلسفة» بالسؤال ، «ماذا نعرف عن العالم الخارجى» ثم يوالى مناقشه عدد من الاقوال تتضمن ما يعتبره «الرأى العام» طبيعى عن العالم ، وينتهى بقوله «.... ان من المعقول يقيناً انها كلها غير صحيحة على النحو الذى صغناها فيه» . ويتبع برتراندرسل طريقة مشابهة لهذه فى كثير من كتاباته . وسنناقش طريقته فى البرهان فى كتابه «المشاكل الفلسفية».

يبدأ رسل فى هذا الكتاب بأن يسأل عما اذا كانت توجـــد «فى العالم أى معرفة من اليقين بحيث لا يمكن لأى رجل عاقل الشك فيها ؟» لن يصادف الفيلسوف فى دراسته (وهو يؤمن بعقله ايمانا لا شك فيه) ، الا القليل جداً من مثل هذه المعرفة طبعا. فماذا نعرف عن هذا النضد الذى يقتنع الرجل العادى «بحقيقته الصلبة» اقتناعا شديدا؟ حقا اننا نعانى احساسا معينا «بالصلابة» حينما نلامسه ، ونرى صورا متعددة الألوان حينما ننظر إلى النضد من زوايا مختلفة وتحت اضاءات مختلفة على حد قولنا. ولكن كل ما خلا هذه الاحساسات والصور وترابطها ليس الا مجرد استدلال . وسواء وجد سبب كاف او لم يوجد ، لكى نقول بوجود «النضد الحقيق» ، أو بمعنى أعم

---

(١) أدخل ديكارت الفرنسى هذا «المذهب فى الشك المنهجي» على الفلسفة الحديثة، ونقطة بدئه الفلسفى هي « أنا أفكر فأنا إذن موجود » .

بوجود العالم المادى فان اساس كل «ما يعطى لنا» وكل ما نعرفه معرفة يقينية هى احساساتنا (ويستخدم رسل كلمة «شواهد الحس») . وهكذا يستنتج رسل انه «مهما يكن من أمر الاشياء التى نشك فيها ، فان بعض تجاربنا المباشرة على الأقل تبدو يقينية اطلاقاً . وقد يتمكن «العاقل» من أن يشك فى وجود العالم المادى باعتباره علة لاحساساته ولكنه لن يشك فى احساساته نفسها . وهذا الرأى الذى توصل اليه رسل فى هذا البرهان هو فى جوهره الرأى الذى تذهب اليه فلسفة الشك. ومن ابرز ممثليها دافيد هيوم (١٧١١ — ٧٦) وكان ايضا يعتبر احساساته اكثر صور المعرفة يقيناً وقال انه من المستحيل أن نقرر «ما اذا كانت تنشأ مباشرة من الموضوع أم تتألف من قوة الذهن الخالقة أم تستمد من خالقنا» . أما مذهب اللاأدرية (١) فقد ذهب فى القرن التاسع عشر إلى رأى شديد الشبه بهذا الرأى وسنتناول بالبحث فى الباب الثامن على نحو اكثر تفصيلا صورة هــذا المذهب فى القرن العشرين أما الآن فسنكتفى بالاشارة الى انه برهان عليل غير متسق فى اجزائه لو تابعنا نتائجه المنطقية لوصلنا إلى أعلى درجات المثالية.

أما الأسقف بركلى (١٦٨٥ — ١٧٥٣) الذى أتى قبل هيوم فقد استخدم براهين الشك التى ذكرناها لا باعتبارها اسبابا للشك فى وجود العالم المادى فحسب بل كدليل ايجابى على ان كل حقيقة هى على وجه ما حقيقة «عقلية». ويصل هذا الرأى، وهو أعلى درجة من درجات الفلسفة المثالية ، إلى آخر صورة على أيدى بركلى حتى تصبح ما تسمى بالاشياء المادية ، فى حقيقتها ، أفكار فى ذهن الخالق . وليس من عجب فى أن بركلى قد استطاع استخدام فلسفته ليسوق «دفاعا عقليا» عن المسيحية إذ استحق من أجل ذلك رتبته الكنسية . وليس ما يدعو إلى الوقوف بالبرهان عند النقطة التى يتركه فيها المثاليون الذين لا ينفون عن انفسهم هذه الصفة . ويمكن أن نتابع السير قدما فى «طريق الهبوط إلى الجحيم» ونذهب الى ما وراء موقف اصحاب فلسفة الشك والفلسفة المثالية لنصل إلى المذهب المثالى الذاتى (٢) ويرى ان احساساتى

---

(١) اللاأدرية مذهب يزعم ان العقل الانساني لايستطيع أن يحكم هل الحقيقة موجودة م غير موجودة وان وجدت فلانسان لايمكن ان يصل إلى حقيقة الأشياء . (المترجم)

(٢) المذهب المثالى الذاتي هو النتيجة المنطقية للمعرفة المثالية . ويذهب أصحابه إلى الاعتقاد بان الذات الفردية وحدها وما ينشأ عنها من انفعالات هى الحقيقة أما الذوات الاخرى فليس لها من وجود مستقل إلا بقدر ما لأشخاص الاحلام من وجود قائم بذاته. (المترجم)

«وحدها» هى الموجودة وان كل مافى العالم من أشياء بما فى ذلك الافراد الآخرين ليست الا «خليطا من الاحساسات».

ويرتطم الفلاسفة المثاليون (ومن بينهم رسل فى كتابه الآنف الذكر) بهذه الصعوبة على الدوام ثم يبادرون بالابتعاد عنها ما وسعهم ذلك. والواقع ان البدأ بانكار كل شىء ماعدا الاحساسات «الخاصة» أمر يصعب معه جداً «اثبات» وجود أى شىء آخر. بل ان الحال فى حقيقتها لأشد سوءاً مما بينا. فقد نشك فى صحة ذكرياتنا بل وفى اتصال التفكير على نحو نتمكن معه من اتمام جملة بدأناها. وهكذا نصل إلى ضرب من «الفلسفة» يسمى «مثالية الذات فى اللحظة الحاضرة». ولسنا فى حاجة الى القول بان انصارها لا يمكن أن يوجدوا خارج مستشفيات الامراض العقلية!

طريق عجيبة تلك التى تتبعناها. بدأنا بفيلسوف يقضى فى بحثه على وجود النضد الذى يكتب عليه عن طريق الشك. ثم وجدنا انفسنا فى مصاحبة أسقف متفلسف يرفض «العقيدة» المزعومة فى وجود المادة ليحل محلها عقائد دينية حقيقية. وانتهينا إلى مهاترات مستشفى المجاذيب. حقا ان هذه الطريقة فى البرهان التى تبدأ «بالشك الفلسفى» تهدم نفسها بنفسها. ومع ذلك فانهم يزكونها لدينا قائلين عنها المنهج «العلمى السليم» الذى يبدأ «حيث تجب البداية» ولا يأتى «بفروض تحكمية». فهلا يوجد حقا بديلا عن هذا المنهج؟

(٣)

الرد المادى على المذهب المثالى

اذا اردنا ان نتحاشى هذه النتائج التى تدحض نفسها فعلينا ان نبتعد تماما عن طريق البرهان الذى أدى اليهـــا. فنرفض الشك الفلسفى الذى يبدو بريئا ويدعى انه يبدأ بأقل الفروض وان كان فى الحقيقة ينكر العالم الموجود ليحل محله أوهام مطلقة من صنع الفيلسوف. ويجب فى استدلالنا أن نتخذ نفس وجهة النظر المادية التى نتبعها جميعا فى التجربة اليومية تلك الوجهة التى عبر عنها ماركس وانجلز فى احد اعمالها المبكرة فيما يلى:

« ان المقدمات التى نبدأ عندها ليست اختيارية وليست عقائد ولكنها مقدمات حقيقية لايحدث تجريدها إلا فى الخيال . تلك المقدمات هى الأفراد الحقيقيون ونشاطهم والاحوال المادية التى يحيون فيها سواء منها ما كان موجوداً بنفسه أو ما ينتج عن نشاطهم . وعلى هذا النحو يمكن ان تحقق من صحة هذه المقدمات بطريقة عملية خالصة » (١)

« مقدمات حقيقية لا يحدث تجريدها الا فى الخيال » هنا يكمن النقد المادى الجوهرى للمذهب المثالى وهو رفض احداث تجريد باطل للاشياء « المبذولة لنا » بالفعل وابدالها « بافكار » الفيلسوف المشوشة أو « باحساساته » . أما ردنا على هؤلاء المثاليين الذين قد يسألوننا ، كيف تثبتون وجود العالم الخارجى ؟ فهو كيف تشكون فى وجوده ؟ (٢) ولما كان حكمنا على الفلاسفة المثاليين يجب ان ينصب ، كما هو الحال مع الاحزاب السياسية ، على اعمالهم لا على اقوالهم نقول ان المثاليين لا يمكنهم أن ينكروا فى الحياة العملية العالم المادى الذى لا يعتمد فى وجوده على احساساتهم . وقد أقر الفلاسفة ومن بينهم هيوم نفسه استحالة اعتناق فلسفة الشك خارج عالم الدراسة.

هذا الاتجاه المادى هو المقابل الحقيقى لمذهب الشك المثالى . ويختلف عن هذا الأخير فى انه لايدحض نفسه . ولم يدع انه « غير قابل للنقد » . هو الاتجاه العملى الذى قام عليه العلم منذ الأزمان الاولى . وهذا الاتجاه لايقل أهمية لعلم المجتمع كما سبق أن أشرنا ، وكما ستثبت ذلك بالتفصيل ، حينما نصل إلى بحث « المسئلة العملية » .

(٤)

الاسس الاجتماعية للمذهبين المثالى والمادى

المذهب المثالى والمذهب المادى طريقان فى النظر إلى العالم . ولكن الصراع بينهما لم يعد مجرد صراع بين مبادىء تجريدية ، بل أصبح فى جوهره تعبير عن التناقض

(١) ماركس وانجلز : المذاهب الفكرية الالمانية صفحة ٦ .

(٢) فى القول « أنا » او فى استعمال « ياء » الملك نفترض افتراضا سابقا وجودنا المادى. ووجودنا يفترض افتراضا سابقا ايضا كل لوازم هذا الوجود بما فى ذلك العالم المادى . فاذا بدأ إذن المثالى بقوله « انا » او احساساتي فانه يسلم في الواقع بالعالم المادى الذى يتحايل على اثبات عدمه.

والصراع الكائنين فى المجتمع الطبقى الحديث . ومن أجل هذا وجه مؤسسو الماركسية (ولنين فيما بعد) اهتماما كبيراً إليه .

فالفلسفة المثالية تؤدى إلى موقف متشكك نحو العلم وإلى تصورات تيولوجية « متنكرة » (إن لم تؤد إلى علو على الطبيعة صريح) ، كما تؤدى إلى وصف خاطىء مملوء بالغموض للعلاقات البشرية القائمة . وبذلك تصبح دعامة مفيدة للنظام الرأسمالى .

أما الفلسفة المادية من الجانب الآخر ، فتنتقد وتتحد ، هى فلسفة ثورية اذ توضح طبيعة العلاقات البشرية القائمة وتطالب باقامة العمل الانسانى على أساس من الدراسة العلمية للعالم الواقعى بدلا من أن يقوم على خيالات ذهنية . وكانت خطة ماركس وانجلز المادية التامة هى التى مكنتهم من جعل الاشتراكية علماً . (١)

« إذا كان المذهب المادى يشرح بصفة عامة الوعي باعتباره نتاجا للوجود ، لا العكس ، فإذا طبق هذا المذهب إذن على الحياة الاجتماعية للجنس الانسانى لابد وان يشرح الوعى الاجتماعي باعتباره نتاجا للوجود الاجتماعى » (٢)

ومن هنا يظهر لنا بوضوح التعارض بين اتجاه الاشتراكية العلمية والاشتراكية الخيالية ونلاحظ ان هذا التعارض ليس إلا فرعاً خاصاً من التعارض العام بين الفلسفة المادية والفلسفة المثالية.

وسنبحث فى الباب الثامن فى شىء من التفصيل تطور هذا النزاع الفلسفى فى ظل الصراع الطبقى فى العصر الحديث . وقد ذكرنا هنا التفاصيل الكافية لتميز المذهب المادى من المذهب المثالى فى ايجاز ولاظهار السبب الذى من أجله يجب أن تكون فلسفة المناضلين فى سبيل التحرر فلسفة مادية . وسنستعرض فى الباب القادم تاريخ المذهب المادى ونظهر ان هذه الفلسفة يجب أيضاً أن تكون جدلية .

---

(١) يضطر كل مذهب مثالى الى انكار الامكانية الصريحة فى اقامة علم المجتمع الانسانى.
(٢) لنين : كارل ماركس صفحة ١١

الباب الثاني
المادية الآلية والمادية الجدلية

« ان منهجى الجدلي لا يختلف عن منهج هيجل فحسب بل هو ضده تماما » .

ماركس

(١)

المذهب المادى القديم

« ماهى مادة الكون الأولية ؟ » شغلت أول مدارس الفلاسفة اليونانيين الملتيين (١) بالبحث عن اجابة مادية صرفة لهذا السؤال ، فبينما كان طاليس (٢) يعتقد أن هذا الجوهر الأول هو الماء يروى ان تلميذه انكسمندر (٣) آمن بأنه « ليس هو الماء ولا أى من الأشياء التى تسمى بالعناصر ولكنه جوهر يختلف عنها ، هو اللامحدود الذى تنشأ عنه كل السماوات والأرضين التى فيها » (٤) ويعتقد انهذه المادة أزلية ملساء ويقول انها « تحيط بالكون كله » . « وقد وجد إلى جانب ذلك حركة أزلية خرج منها مبدأ الكون » .

---

(١) المدرسة الملتية : تتألف من طاليس وانكسمندر وانكسمانس ويشتهر هؤلاء فى كتب الفلسفة العربيـة باسم الطبيعيين الاوائل ونشأوا جميعاً في مدينـة مليتوس على ساحل اليونان وقد تلمذ اللاحق منهم على السابق وتحدثوا عن أصل العالم. (المترجم)

(٢) طاليس : ذاع صيته حوالى سنة ٦٠٠ ق.م وقال بان الماء أصل الاشياء . ويقال انه تنبأ بالكسوف الذي حدث في ٢٨ مايو سنة ٥٨٥ ق . م وانه عرف شيئا عن المغناطيسية. (المترجم)

(٣) انكسمندر (٦١٠ — ٥٤٧ ق. م) تلميذ طاليس وقال بان أصل العالم هو اللامحدود لا الماء. وذكر صفات اللامحدود ولكنه لم ينجح في ايضاحها وهـذا مادعى انكسمانس الى القول بأن مادة العالم هى الهواء لأنه لامحدود من جهة وتمكن معرفته من جهة أخرى . (المترجم)

(٤) هذه النصوص مأخوذة من كتاب بيرنت : الفلسفة اليونانية القديمة .

ونرى فى حالة انكسمندر هذه كيف دفعت بقوةالنظرة المادية للعالم . التأمل العلمى إلى النشاط . وكان انكسمندر أول من اعتقد بأن الأرض تهتز دون عائق، فى الفضاء، وتقوم بغير عمد .

ومن أهم ماذهب إليه تنبؤه بنظرية النشوء والارتقاء الحديثة . وقد بقيت شذرات من تعاليمه وهى لاتدع مجالا للشك فى ان انكسمندر كان يعتقد (١) ان الحياة نشأت من البحر (٢) ان الانسان نشأ عن الاسماك عن طريق عملية التحول . ولاشك ان هذه الأقوال لاتعدو كونها « تأملات » إذ لم تكن الاسس الضرورية للملاحظة العلمية المفصلة قد اعدت حينئذ . ولكنها تظهر إلى أى مدى تنير النظرة المادية فى فجر حياتها السبيل أمام التقدم العلمى .

سميت « المدرسة الملتية » فى الفلسفة بهذا الاسم نسبة لمدينة ميليتوس اليونانية الشهيرة التى نشأت فيها . ونعلم من كتاب جورج هنرى لويس فى « تاريخ الفلسفة » ان « ميليتوس كانت من أكثر مستعمرات اليونان ازدهاراً ، وكانت تجارتها البحرية والبرية واسعة الانتشار . وقد أفسح دستورها السياسى المجال للنشاط الفردى . . . »

وهنا أيضاً نصادف تلك الظروف الاجتماعية التى كانت تقف غالباً فى الأوقات الأخيرة إلى جانب النظرة المادية للعالم . وقد كانت المادية على وجه العموم بيرق الطبقات التقدمية خلال التاريخ ، سواء فى ذلك الطبقات التجارية القديمة أو البورجوازية (١) فى مرحلتها الثورية أو البروليتاريا (٢) الحديثة .

وقد تطورت الفلسفة اليونانية بعد ذلك تطوراً يميل إلى الاتجاه المثالى ، (وسنتناول فى الباب السادس بعض مظاهر هذا التطور المهمة) وبالرغم من ذلك فقد ظهر أيضاً مفكرون ماديون فطاحل ، اؤلئك هم

---

(١) البورجوازية : راجع هامش صفحة ٥ (المترجم)

(٢) البروليتاريا : هى طبقة الاجراء المجردون من ملكية وسائل الانتاج أو الارض أو العقار والمضطرون إلى بيع قوة عملهم ليعيشوا منها وتشمل عمال الصناعة والفلاحين الذين يعملون بأجر وصغار الموظفين الذين لادخل لهم سوى مرتباتهم (المترجم)

ليوقبس (١) وديمقريطس (٢) مبتكراً التصور الذرى للمادة واللذان كان لهما أثر كبير فى اشاعة التفكير العلمى مدة طويلة. ووجد أيضاً مفكرون كارسطو (٣) وكان المضمون الأساسى لتعاليمه مادياً.

وحينما أصاب المدنية اليونانيــة الانحلال وانتصرت الرجعية السياسية، اختفت الفلسفة المادية لتفسح المجال لأشد أنواع الصوفية والمذاهب المتعالية على الطبيعة رجعية.

(٢)

المذهب المادى الآلى

توصل الماديون اليونانيون القدامى إلى تصورات بارعة عن طبيعة الأشياء. وكان عملهم ضرباً من «الشعر العلمى». ولكنه لم يؤسس على منهج علمى صحيح أو على دراسة علمية جدلية للعالم. فالمجتمع اليونانى الذى قام فى أول الأمر على زراعة العبيد للأرض كانت تعوزه الدوافع الاجتماعية لمثل هذا التطور العلمى. وقد بلغت هذه الدوافع أشدها بنمو انتاج السلع فى أوربا وعلى الأخص ابتداء من القرن السادس عشر وما يليه اذ تطلبت البورجوازية تفكيراً مادياً علمياً لسببين. احتاجت فى المحل الاول إلى تنمية العلوم الطبيعية وعلى الأخص

(١) ليوقبس فيلسوف يونانى عاش في القرن الرابع قبل الميلاد ولا تعرف سنة ميلاده على وجه التحديد وهو مؤسس النظرية الذرية وآثاره التى انتقلت الينا ضئيلة ولكننا نجد شرحا لنظريته على لسان تلميذه ديمقرطس. (المترجم)

(٢) ديمقرطس ولد حوالي ١٦٩ ق. م وتطغى شهرته علي شهرة استاذه ليوقبس وكان اغلب اهتمامه بالعلوم الطبيعية إذ قال بان المادة سواء الحية منها او الغير حيـة تنقسم إلي ذرات صغيرة غير قابلة للانقسام وعددها غير محدود وهى لاتختلف فى الكيف وان كانت تختلف في الكم من حيث الشكل والمقدار والثقل لذلك تسمي هذه النظرية باسم النظرية الذرية الكمية. (المترجم)

(٣) أرسطو (٣٨٤ — ٣٢٢ ق. م) الفيلسوف اليونانى المعروف ولد فى ستاجيرا فى مقدونيا وتولي التدريس للاسكندر الأكبر. وتراثه العلمي الضخم معروف عند العرب. وقد اشتهر بوضع المنطق القديم الذي ظل يدرس إلي جانب تعاليمه الاخرى طوال العصور الوسطى ولم يزل يدرس حتى اليوم فى جامعات العالم. وكانت فلسفته اساساً لفلسفة كثير من كبار الفلاسفة العرب امثال الفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم. (المترجم)

الميكانيكا لتطبيقها على الصناعات . وكان ضرورياً ثانياً لتحد التضيق الفكرى للكنيسة البابوية وأحكامها الملكية المطلقة اللذين كانا دعائم النظام الاقطاعى الأساسية . .

فى بريطانيا العظمى وهى من أوائل الدول التى انهار فيها النظام الاقطاعى ، ظهرت مجموعة من الفلاسفة الماديين (تشمل بيكون (١) ولوك (٢) وهوبز (٣) من الشخصيات البارزة فى القرن السابع عشر) مما دعى ماركس إلى القول بأن « المذهب المادى هو ابن بريطانيا العظمى الطبيعى » (٤) ، ولكن وللاسف حينما فقدت البورجوازية الانجليزية جذوة ثورة شبابها ، وأصبحت محافظة وقورة ، عوملت هـــذه الفلسفة المادية ، نفسها فيما بعـــد معاملة الابن غير الشرعى !

والمذهب المادى الذى نما فى هذا العهد كان قد تأثر تأثراً عميقاً بتطور العلوم . وكان العمل البارز فى الفترة الاولى من تطور العلم الحديث (من القرن السادس عشر إلى الثامن عشر) هو الميكانيكا التى وصلت على يد نيوتن (٥) إلى درجة عالية من الكمال ، وأصبحت خلال فترة من الزمن أمام العلوم كلها نموذجا لما يجب

---

(١) فرنسيس بيكون (١٥٦١—١٦٢٦) الفيلسوف الذي لقب بابي العلوم الحديثة لأنه وضع منهجاً للبحث العلمي يختلف عن منهج العصور الوسطي وقد وردت تفاصيل هذا المنهج في كتابه الشهير : الآلة الجديدة . (المترجم)

(٢) جون لوك (١٦٣٢ — ١٧٠٤) من مشاهير الفلاسفة في القرن السابع عشر . كان لكتاباته تأثير كبير على التفكير السياسي والاجتماعي وقد انعكس هذا التأثير بشكل مباشر في دستور الولايات المتحدة . (المترجم)

(٣) توماس هوبز (١٥٨٨ — ١٦٧٩) كان من انصار الملكية وقد حاول تبرير وجودها في اعماله الفلسفية السياسية . هاجر في زمن الثورة الانجليزية عام ١٦٤٠ ثم عاد إلى انجلترا عام ١٦٥١ . (المترجم)

(٤) ماركس : اقتباس انجلز فى مقدمته لكتاب الاشتراكية الخيالية والاشتراكية العلمية.

(٥) اسحق نيوتن (١٦٤٢ — ١٧٢٧) العالم الانجليزى الذى توصل إلى كشوف علمية كان لها أثر كبير علي تقدم العلم ومنها تحليله الضوء وصياغته لقانون الجذب العام واستخلاص أهم النتائج المبنية عليه ثم وضعه حساب التفاضل والتكامل ومن المعروف ان ليبنتز توصل مستقلا إلى معرفة هذا الحساب وقد ثار بينهما نزاع علي أسبقية أيهما إلى معرفته (المترجم)

أن يكون عليه « العلم الصحيح » . وكانت أغلب فروع علم الطبيعة مغرقة فى حالة بدائية (وقد كانت تحتاج إلى تطور الميكانيكا أولا) وكان ماعرف من الكيمياء والبيولوجيا لايزال قليلا . وعلى هذا النحو سادت الميكانيكا العلوم أما الفلسفه التى نشأت عنها فيمكن أن تسمى بالمادية الآلية .

نظر المذهب المادى الآلى إلى العالم كما ينظر إلى آلة شديدة التعقيد اديرت فى وقت ما وظلت تسير تبعاً لقوانين محدودة لاتنسخ إلى أبد الآبدين . ولم يوجد فى مثل هذا التصميم مجال للارتقاء أو لأى نوع من التغير الحقيق . كان هذا الضرب من التفكير « ميتا فيزيقيا » (بالمعنى الذى استخدمه هيجل والماركسيون فيما بعد) . أعنى انه رأى كل شىء فى صورة المطلق الجاف الفاصل ؛ وفى حدود الأضداد المتناطحة التى يلغى كل منها وجود الآخر وكان يرى فى تعريفات المنطق الشكلى الصلبة القانون النهائى . وسنجرى بحثاً خاصاً فى منطق هذا الضرب من التفكير فى الباب الخامس .

وفى هذه الأثناء نختار الفيلسوف المادى الفرنسى الكبير دهولباخ كايضاح للمذهب المادى الآلى وقد عقب على بعض التأملات العلمية بهذه الكلمات : « اذا عن للانسان أن يرفض كل الحدس السابق واذا عن للانسان أن يدعى بأن الطبيعة تعمل وفقاً لمجموعة معينة من القوانين العامة التى لاتتغير . واذا عن للانسان أن يعتقد ان الانسان والدواب والأسماك والحشرات والنباتات الخ وجدت دائماً وستظل أبداً كما هى . واذا عن للانسان أن يصر على ان الكواكب ستتلألأ فى الجو إلى الأبد ، فليس لنا اعتراض على ذلك » (١)

يتحدث دهولباخ هنا بلسان جل مدرسة الماديين الفرنسيين التى أعدت عقول الناس فى القرن الثامن عشر للثورة القادمة . ويبدو بجلاء قصور رأيهم حينما يحاولون معالجة المجتمع الانسانى . فنى مقدورهم أن ينبذوا أشياء كالاستبداد والدين باعتباره « سيئاً » بل ويمكن استبعاد العصور الوسطى كلها كما يستبعد « الشىء السيىء » ولكنهم كانوا يعجزون عن شرح الحوادث التاريخية التى يتهمونها . وكان مثل هذا الشرح أمراً مستحيلا لنقص أساسى فى فلسفتهم وهو فشلها فى فهم التطور .

---

(١) هولباخ . اقتباس بليخانوف . مقالات في تاريخ المذهب المادى صفحة ١٣ .

(٣)

المثالية الجدلية ونقيضتها المادية

أدت عيوب المذهب المادى الآلى إلى ردفعل مثالى نمى فى حدته مع تقهقر البورجوازية فى كل مكان عن دورها الثورى الحقيقى (١). وفى القرن الثامن عشر اعتبر الفلاسفة الماديون انهم قد قضوا على المثالية. ولكن :

« أثناء العقود الاربعة الاولى من القرن التاسع عشر لم تصل إلى مسامع أحد كلمة عن المادية التي أعتبرت انها ماتت بدورها ودفنت . وبدا المذهب المادى للعالم الفلسفى والادبى كما بدي لجوته،قاتماً كئيباً بائداً : والناس يرتعدون منه كما يرتعدون من الاشباح »(جوته) . وكانت فلسفة التأمل تثق هى الاخرى بأن منافستها قد هزمت إلي غير رجعة »(بليخانوف) (٢).

وكان الفلاسفة الالمان التقليديون هم زعماء هذه الردة المثالية وخاصة كانت وهيجل الذى نقد مواضع الضعف فى مادية القرن الثامن عشر نقداً مستفيضاً كما نقد « طريقتها الميتافيزيقية الجافة الحادة فى التفكير ، وكون فى مقابلها فلسفة جدلية تناولت « دراسة الأشياء فى تطورها ، فى نشأتها وانحلالها » (بليخانوف) (٣). وقد أصبح التفكير الجدلى أمراً جوهرياً فى العلوم حينما اجتيزت حدود الميكانيكا الضيقة وعلى الخصوص بمجرد ادراك بعض الحقائق الهامة كنشأة الأنواع وارتقائها (وسنتناول فى الباب التالى الحقائق الجديدة التى كانت تبعث ثورة فى العلم وتجبره على أن يكون جدلياً).

ولكن مثل هذه النظرة الجدلية كانت أشد ماتكون أهمية فى فهم التاريخ والتطور الاجتماعى . وهنا فضل هيجل الكبير فى تصور التاريخ على أنه عرض

---

(١) المذهب المادي الآلي جانبه الرجعي بقصره دور الثورة الاجتماعية على اعادة « القانون الطبيعي » الذى أفسده الملوك ورجال الدين.

(٢) هو لباخ اقتباس بليخانوف . مقالات في تاريخ المذهب المادي ص ١٦٧.

(٣) نفس المرجع ص ١٦٧.

لعملية من التطور بدلا من أن يكون « فصلا من الحوادث » حيث يتوقف كل شيء على هوى «عظماء الرجال» (وكان هذا الرأى سائداً حينذاك وغالباً مايوجد بين المؤرخين البورجوازيين اليوم — انظر الباب الرابع).

أن النقص الأساسى فى كل الفلسفات المثالية ، أعنى ماجبلت عليه من ارتجال المسلمات ، يحول دون استخدام المنهج الجدلى الذى ارتقى على أيدى هيجل ، استخداماً علمياً — وبدلا من دراسة قوانين تطور العالم الحقيقى بالمناهج العلمية قامت محاولة لاستنتاج هذه القوانين من دراسة أفكار وتصورات (لم تخرج عن كونها صوراً تختلف دقة) عن العالم.

والجدل فى رأى هيجل هو التطور الذاتى للتصور . « والتصور المطلق لايوجد منذ الأزل فحسب — المكان غير معروف — بل هو أيضاً الروح الحية حالياً لهذا العالم بأسره » (انجلز) (١) وأيضاً :

« التطور الجدلى الذي يبدو في الطبيعة والتاريخ في رأى هيجل إذن ، اعني الترابط العلى لحركة التقدم من الادني إلى الأعلى التي تؤكد نفسها خلال كل الحركات المتعرجة والنكسات المؤقتة لا يعدو أن يكون نسخة حقيرة لحركة التصور التلقائية التي تجرى منذ الازل ولا يعرف أحد إلى أين وان كانت في كل الحوادث مستقلة عن أي تفكير للدماغ البشري » (انجلز) . (٢)

وقد ثار ماركس وانجلز ضد ابدال الحقيقة المادية « بالتصور » الصوفى حينما قلبا جدل هيجل « رأساً على عقب » — « أو بمعنى آخر أديرت رأسه التى كان يقف عليها من قبل وأقيم على أقدامه مرة اخرى » (انجلز) (٣) .

وبهذا الفهم لم يعد الجدل « سراً قدسياً » بل « هبط بنفسه إلى حظيرة علم القوانين العامة للحركة — حركة العالم الخارجى ، وحركة الفكر الانسانى » (٤).

عاد المذهب المادى إلى حاله مرة اخرى ، ولكنه لم يعد ذلك المذهب المادى الآلى

---

(١) انجلز : لودفج فويرباخ الخ ص ٥٣
(٢) نفس المرجع ص ٥٣
(٣) » » » ٥٤
(٤) » » » ٥٤

الذى وجد فى الماضى لأن المادية الجدلية أخذت عن الفترة التى تدخلت فيها الفلسفة المثالية ماوصلت إليه هذه الفلسفة — منهجها الجدلى — وطبقته على الواقع تطبيقاً علمياً ومادياً صحيحاً .

تبدو المادية الجدليه لأول وهلة رجوع إلى رأى اليونانيين القديم فى العالم حيث بدأت الفلسفة . والواقع انها ترى العالم كما تفعل المادية اليونانية، على انه كل واحد متداخل فى حركة لانهاية لها وكان هذا الرأى قد اختفى فى الأثناء التى قضى فيها تطور العلوم الخاصة على صورة العالم الواحد هذه ولكن يجب ألا ننسى انها تقوم على أساس يختلف تماماً عن مادية اليونانيين الساذجة . فهى ترتكز على مجمل محصول الفكر خلال ألفى عام من تطور الفلسفة وعلوم الطبيعة ومن تطور التاريخى كذلك فى هذه السنين الالفين،(١) فلئن كان عوداً إلى القديم اذن هو عود . . . مستوى أعلى، ونموذج لذلك النوع من التطور الجدلى المعروف باسم «نفى النفى» الذى سنتناوله البحث حالا.

(١) انجلز : رد على دوهرنج (طبعة ١٩٣٩) ص ١٥٢

الباب الثالث
طبيعة الجدل العامة

« ينبغي ان تكتمل صفات الجدل العامة فى صورة علم للترابط المتبادل بين الاشياء فى مقابل الميتافيزيقا » انجلز.

(١)

الجدل والعلم الطبيعي

بينا كيف نشأت المادية الجدلية باعتبارها فلسفة تدرس العالم ككل فى حالة التطور فى مقابل المذهب المادى القديم، الذى يقوم على الميكانيكا النيوتنية وعلى ما يطلق عليها اسم العلوم «العضوية» (العلوم التى تدرس المادة الحية فى شتى صورها) التى لم تتعد بعد مرحلة التصنيف. وقد رأينا أيضاً أن الدافع الأول للثورة الجدلية فى الفلسفة جاء من الحاجة إلى أدراك التاريخ البشرى.

وقد توصل القرن التاسع عشر إلى تقدم كبير فى العلوم الطبيعية فبرهن وجود الترابط والتطور الجدليين فى هذا المجال ايضاً على وجودهما فى كل مكان. ويذكر انجلز ثلاث اكتشافات عظيمة لها أهمية حاسمة فى تغيير نظرة العلوم الطبيعية:

« أولها كان اثبات تحول الطاقة . . . فكل العلل الفاعلة المتعددة الموجودة فى الطبيعة والتى ادت حتى ذلك الحين إلى القول بوجود أشياء غريبة لاتفسير لها كالاشياء التى تسمى « القوى » — القوة الميكانيكية والحرارية والاشعاعية (الضوء والحرارة الاشعاعية) والكهربائية والمغناطيسية والقوة الناشئة عن الاتحاد والتحليل الكيميائيين — ثبت الآن انها اشكال خاصة وصور متعددة لطاقة واحدة بالذات الا وهى الحركة . وبذلك لم تعد مسألة وحدة الحركة في الطبيعة تأكيداً فلسفياً ، بل حقيقة من حقائق العلوم الطبيعية . . »

« والثاني ، وهو اسبق فى الزمان ، كان اكتشاف الخلية العضوية بفضل شوان وشليدن — الخلية باعتبارها وحدة،عن تكاثرها وتعدد اشكالها تنشأ وتتطور كل الكائنات الحية ماعدا ادناها ».

« ولكن نقصاً اساسياً ظل قائماً . فاذا كانت كل الاجسام العديدة الخلايا ، النبات منها والحيوان بما فى ذلك الانسان ، تنمو عن خلية واحدة تبعاً لقانون انقسام الخلية . فمن اين يأتي اذن اختلاف هذه الاجسام اللانهائى ؟ ! .وجد هذا السؤال جوابه فى كشف عظيم ثالث هو نظرية النشوء والارتقاء التى كان اول من عرضها فى صورة متصلة ، وبرهن عليها هو دارون »(١)

هذه الاكتشافات حولت الجدل إلى حظيرة العلم لأنها قضت على الفواصل المطلقة التى كان يعتقد فيما قبل أنها تقوم بين مختلف «قوى» الطبيعة ولانها اظهرت ان التحول فى كل شيء والارتقاء والنمو وباختصار الحركة هى المظهر الاساسى للطبيعة الذى يجب أن نلجأ اليه لكى نفسر الصفات الحالة فى «الاشياء» . ولكن لم يترتب على ذلك أن العلماء اصبحوا جدليين واعين أو منطقيين مع أنفسهم . بل على العكس سادت حقبة من الاضطراب النظرى اختلط فيها حطام التصور القديم للعالم بالتصور الجديد ، اختلاطا لا يمكن أن يرتفع كلية الا عن طريق استخدام رأى المادية الجدلية عن وعى .

(٢)

قوانين المنهج الجدلى

ولتدعيم المنهج الذى يرمى إلى السيطرة الجدلية على النتائج الجديدة التى توصلت اليها العلوم الخاصة وصياغتها فى كل متجانس ،قام انجلز بدراسة خاصة للعلوم الطبيعية فى القرن التاسع عشر . ونتائج هذه الدراسة متضمنة بشكل جزئى فى كتابه الشهير

(١) انجلز : التذييل (ب) لكتاب لودفج فويرباخ الخ .

« رد على دوهرنج » وبشكل أعم فى خزانة الفكر الخصبة، أعى المخطوط الذى لم يتم المسمى «جدل الطبيعة» .

هذه الدراسة أثبتت لانجلز بالتفصيل الشىء الذى لم يكن يشك فيه بوجه عام

« انه وسط خضم التغيرات العديدة التى تجرى فى الطبيعة تسري نفس قوانين الحركة الجدلية ، قوانين كتلك التى تنظم فى التاريخ سير الحوادث الذي يبدو عرضياً ، قوانين تشبه نظيراتها التي تؤلف استمرار تطور الفكر البشرى خلال التاريخ إلى ان يصل بالتدريج إلى وعي فى عقل الانسان ، القوانين التي صاغها في اول الامر هيجل في صيغة شاملة وان كانت صوفية والتى عندما ينزع قشرتها الصوفية هذه ويعرضها بوضوح امام الذهن في ابسط وأعم صورها » (١)

و« القوانين الجدلية للحركة » التى يشير اليها انجلز هنا ليست سوى الصوره العامة «للعملية والتغير والتطور» التى تشترك فى كل الموضوعات التى تبحثها العلوم الخاصة . ولما كانت هذه الموضوعات المتعددة ليست فى نفس الوقت أيضاً سوى وجوه مختلفة لعملية كونية واحدة ، وان أمكن تمييزها فى وضوح ، فليس من المستغرب أن نتوقع مثل هذه الصفات المشتركة . وهذه القوانين الجدلية هى بالطبع أكثر القوانين عموما . وسنرى مما يلى كيف تؤدى إلى منهج يمكن تطبيقه على كل علم من العلوم الخاصة .

توصل هيجل بالرغم من طريقته المثالية إلى حقائق بارعة فى الجدل . فكان ول من وضع هذه القوانين فى صيغتها «التقليدية» كما يلى :

(١) قانون تحول الكم إلى الكيف وبالعكس .

(٢) قانون وحدة (تفسير ، تشابه) الاضداد .

(٣) قانون نفى النفى .

وقد استخدم انجلز هذه الصياغة فى أبحاثه وكثيرا ما أشار ماركس الى هذه القوانين فى كتاباته . وسوف نشرح ونوضح هذه القوانين بضرب الامثلة قبل ان ننتقل إلى البحث الذى قام به لنين وهو أكثر تنظيما واوثق وحدة .

---

(١) انجلز : رد على دوهرنج ص ١٦

(٣)

قانون تحول الكم الى الكيف وبالعكس

هذا القانون ضرورى لتفسير نشأة الصفات الجديدة . وضرورى كذلك لتفسير التغيرات الكمية التى قد تتبع ظهور مثل هذه الصفات الجديدة. وان من المسائل الاساسية فى تفوق المذهب المادى الجدلى على المذهب المادى الآلى، تفسير الأول لكيفية ظهور صفات جديدة عند «نقط حرجة» (١) معينة نتيجة تغير كمى، النقط التى يصبح عندها التغير فى الكم بالفعل، تغيرا كيفيا.

وأبسط الأمثلة و«أشهرها» هو تغير حالة المادة ، فمثلا حينما يتحول سائل إلى غاز (عن طريق الغليان) أو الى صلب (عن طريق التبريد) . وكلنا يعلم أن التدرج فى الزيادة أو النقصان فى درجة الحرارة ، فى مثل هذه الحال لا يؤدى إلى التحول عن حالة السيولة حتى نصل فجأة إلى نقطة يحدث عندها التحول التام . فالسائل (كما يقول هيجل) لا يتحول بالتدريج إلى مادة تزداد لزوجة وصلابة . ولكنه يقفز قفزة واحدة من حالة السيولة الى حالة الصلابة . والقارىء الذى يعرف مبادىء الطبيعة والكيمياء يصادف عشرات من الأمثلة (السهلة) من هذا القبيل . وخاصة فى الكيمياء فكل شىء يترتب على عدد ونوع الذرات فى الجزىء مما دعى انجلز إلى القول بأن «الكيمياء يمكن أن تسمى علم التغيرات الكيفية للاجسام تبعا لتغير التركيب الكمى .» (٢)

والأمثلة على هذا القانون فى علم المجتمع الانسانى لا تقل فى تعددها بل تزيد فى أهميتها نظرا لأن هذا العلم ليس «علما دقيقا» يمكن أن نتكهن فيه بالتغيرات على

---

(١) النقط الحرجة او النقط العقدية كما كان يسميها هيجل هى النقط التي تتحول عندها المادة من حالة إلي اخري ، من حالة السيولة او الصلابة مثلا إلى الحالة الغازية .

(المترجم)

(٢) انجلز : جدل الطبيعة ص ٣٠

نحو كمى . فالثورة الاجتماعية نفسها ليست سوى «قفزة» حيث تجمعت تغيرات كمية وانتقلت إلى تغير كيفى . وسنرى فى الباب القادم كيف تفرق فكرة التغير هذه ، عن طريق قفزات انقلابية .رأى الماركسيه من رأى الفابية أو « القائلين بالتدرج » فى الارتقاء الاجتماعى .وكتاب ماركس الضخم « رأسالمال» مملوء بالأمثلة على هذا القانون الجدلى (وخاصة الجزء الرابع : أنتاج فائض القيمة النسبى ، ويتناول ادوار التطور المختلفة للصناعة الكبيرة الحديثة) .ومن جهة أخرى ، حينما يقع تغير كيفى ، كوجود صناعة رأسمالية كبيرة ، فان هذا فى نفسه منتج لأعظم التغيرات الكمية فى ميادين متعددة (مثل تزايد نشاط الجماهير السياسى ، وحالتهم الثقافية..الخ) .

ويتضح هذا القانون فى عملية التفكير الانسانى فى أى حال من احوال بزوغ أى فكرة أو نظرية جديدة ؛ (سواء كان ذلك فى تفكير الفرد أو الجماعة) . ولبيان ذلك نلجأ الى الاتجاهات الفلسفية التى درسناها ؛ ويمكن أيضاً أن نجد أمثلة فى الميادين الفسيحة الأخرى كالنظريات العلمية ؛ والاصطلاحات الموسيقية .

(٤)

قانون وحدة الاضداد

والقانون الجدلى الثانى ، قانون « وحدة ، تفسير ، تشابه الاضداد » (تبعا للحال) ينص على صفة التناقض الجوهرية فى الحقيقة . وينص فى نفس الوقت على أن هذه « الاضداد » التى توجد فى كل موضع لا تستمر فى تضاد ميتافيزيقى مطلق ولكنها توجد أيضاً فى اتحاد . عرف هذا القانون اليونانيون المتقدمون . وصاغه هيجل فى صيغته التقليديه منذ اكثر من مائة من السنين مضت :

«يفترض ان الموجب والسالب يعبران عن اختلاف مطلق . ومع ذلك فان الاثنين فى الحقيقة شيء واحد ،واسم كل منهما يمكن ان يطلق على الآخر. وعلى هذا النحو ليس الدين والاستحقاق مثلا نوعين من المالكية متمايزين وقائمين بذاتهما . فما هو سالب بالنسبة للمدين موجب بالنسبة للدائن . والطريق إلى الشرق طريق إلى الغرب ايضاً . وعلى ذلك فالسالب والموجب مشروط كل منهما في حقيقته بالآخر وليس لأحدهما صلة إلا بالآخر . فالقطب الشمالي في المغناطيس لايمكن ان يوجد دون القطب الجنوبي وبالعكس . وإذا قسمنا مغناطيس إلى جزئين ، فلن يوجد القطب الشمالي فى جزء والقطب الجنوبي في الجزء الآخر . وكذلك الحال فى الكهرباء ، ليس الموجب والسالب تيارين مختلفين ، مستقل كل منهما عن الآخر . ففى التضاد لايقوم الاختلاف بين اي شيئين ، بل بين شيء وآخر بالذات . »(١)

وأهمية فهم طبيعة التناقض فى الاشياء هى انها تؤدى بنا إلى عملية التطور التى تحدث فى داخلها والتى تحدث من تصادم هذه الاضداد . لذلك سمى لنين التناقض «ملح الجدل» وذكر أن «تقسيم الواحد ومعرفة اجزائه المتناقضة هو جوهر الجدل» (٢) .

وسنرى فى الباب القادم كيف فسرت الماركسية تطور المجتمع البشرى بالكشف عن التناقض الاساسى وهو القوة الدافعة لهذا التطور . وسنلجأ فى هذه الاثناء لايضاح التناقضات (وهى ليست مجرد تناقضات «منبسطة») فى عالم الفكر ، إلى أصل كلمة «جدل» فى معناها الحالى . وبيان ذلك أن هيجل قد اشتقها من نفس أصل كلمة «مجادلة» ـ والفكرة أن تصادم الاضداد ، الذى يؤدى إلى الحركة الجدلية بوجه عام، يشبه فى جوهره تقارع الافكار الذى يؤدى «فى المناقشات الحية المثمرة» (٣) إلى بزوغ آراء جديدة .

---

(١) هيجل : منطق هيجل ترجمة والاس ص ٢٢٢

(٢) لنين : في الجدل .

(٣) كينو فيشر : اقتباس بليخانوف فى كتابه المسائل الأساسية في الماركسية ص ١٢٣ .

وعلينا أن نحاذر عند تفسير واستخدام هذا القانون الجدلى الخاص بوحدة الاضداد، من أن نجعل «الوحدة» تطغى على «التضاد» الاساسى . فالوحدة ، كما سيتضح لنا من مثال «مخيف» فى الباب السادس ، توجد بصفة نسبية محدودة أعنى مؤقتة «هنا والآن» . ولكن من جهة الكون المتطور ككل لا يكون الشىء الجوهرى هو ذلك المؤقت «هنا والآن» ، ولكنه على الأخص الحركة والتغير الناتجين عن تصادم الضد .

(٥)

قانون نفى النفى

ينص هذا القانون على صفة من أبرز الصفات المميزة لعملية الارتقاء فى كل الميادين ، إن التطور يحدث على هيئة لولب ؛ يلغى تغير ما حالة معينة من الامور ثم يخلفه تغير يلغى الأول ويعيد (فى صورة أكثر رقيا أو على «أساس أعلى» كما يقال فى اكثر الأحيان) بعض الصفات الجوهرية للحالة الأصلية من الأمور.

وقد ذكرنا فى الباب الأخير مثالا لهذا القانون فى تاريخ الفكر البشرى وهو نشأة المذهب المادى الجدلى عن طريق نفى المذهب المادى الآلى الذى كان هو نفسه نفياً للتصور المادى الأول «الساذج» للعالم .

وهذا القانون الجدلى يشبه الآخرين فى انه لا يمكن أن «يدس» بتعسف على الكون أو التاريخ . ولا يمكن أن يستخدم عوضاً عن الوقائع العملية أو أن يستخدم «للتنبؤ» باشياء دون دراسة دقيقة للوقائع موضوع البحث (راجع البابين الخامس والسادس) . وكثيرا ما أبرز ماركس وانجلز هذه المسألة . ولكن بالرغم من بيانهما القاطع للنقيض فان اتهامهما باستخدام الجدل على هذا النحو (على نحو مثالى) من اكثر المآخذ التى توجه إلى الماركسية شيوعا — فمنذ ذلك العهد اكتشف المدعو دكتور دوهرنج عام ١٨٧٥ أن ماركس برهن على حتمية الثورة البروليتارية بطريقة صوفية عن طريق قانون نفى النفى . ولما كان هذا «الكشف» نفسه قد توصل اليه

فى أيامنا هذه فى العالم الانجليزى، بعد أكثر من نصف قرن، اثنان من الناشرين الانجليز (رسل وكاريت) يستحسن أن نعيد نشر خلاصة رد انجلز على دوهرنج.

فى نهاية الباب المعنون بالاتجاه التاريخى للتزايد الرأسمالى من كتاب رأسالمان حيث يعرض تاريخ نشأة النظام الرأسمالى يجمل ماركس الخاتمة فى هذه الكلمات:

« ان اسلوب التملك الرأسمالي نتيجة اسلوب الانتاج الرأسمالى ينتج الملكية الراسمالية الخاصة . وهذا اول الغاء الملكية الفردية الخاصة باعتبارها مؤسسة على عمل المالك . ولكن الانتاج الراسمالي يولد، تبعاً لقانون الطبيعة الذي لاينثنى، نقيضه . ذلك هو نفى النفى . » (١)

وهذا لايعيد الملكية الخاصة إلى المنتج، بل يعطيه ملكية فردية مؤسسة على ماتوصل إليه العهد الرأسمالى، أعنى على التعاون وعلى الاشتراك فى ملكية الأرض و « وسائل الانتاج » . وإذا قرأت هذه الفقرة بمفردها، أعنى بعزلها بطريقة فاسدة غير جدلية عن باقى الكتاب، فقد تدرك على نحو خاطىء بالطريقة التى بينت . ولكن لما كانت تذييل دراسة شاملة مفصلة لكل مايحدث فى النظام الرأسمالى فى جزء وضح فيه أن نمو الرأسمالية نفسه يقوى بالضرورة صراع الطبقات الكادحة ضدها، فليس ثمة عذر للمفكرين البورجوازيين، اللهم إلا عمى أفقدتهم فى مثل هذا التحريف.

وحرى بنا أيضاً أن نشارك انجلز القول:

« انما يظهر ماركس فقط عن طريق التاريخ، ويقرر فى هذه الفقرة بصورة مجملة انه كما ان الصناعة الصغيرة السالفة خلقت بنفسها وبالضرورة أثناء تطورها شروط زوالها أعنى نزع ملكية صغار الملاك، فكذلك خلق

---

(١) ماركس: الجزء الأول ص٧٨٩ الطبعة الأمريكية.

اسلوب الانتاج الرأسمالي بالمثل الشروط المادية التى ستقضى عليه . تلك عملية تاريخية ولئن كانت عملية جدلية فى نفس الوقت فليست هذه غلطة ماركس وان ضايق ذلك هردوهرنج » (١).

(٦)

الجدل باعتباره منهاجا

قد يبدو ماذكرناه عن قوانين الجدل إلى حد ما ارتجالياً وغير متصل . ويرجع السبب فى ذلك إلى اننا ، تسهيلا للشرح ، قد عزلنا بعض مظاهر معينة من مظاهر عملية الجدل (وهى أهم مظاهرها لاشك) ووضحناها بأمثلة مأخوذة من ميادين مختلفة . ولم نصـور بعد ذلك فى وضوح كاف الوحدة الجوهرية التى تربط شتى مظاهر الجدل هذه . فطريقتنا فى البحث لم تكن نفسها جدليـة إلى حد مرض . .

وسنحاول علاج هذا العجز بشرح « مناهج البحث » الجدلية المنظمة تنظيما دقيقاً والتى ذكرها لنين فى كتابه « ملاحظات عن منطق هيجل » . يقول لنين فى هذه الملاحظات : « يمكن أن يعرف الجدل فى اختصار بأنه نظرية وحدة الأضداد . وهذا يغطى نواة الجدل ولكنه يحتاج إلى شرح وتوسيع» . (٢) ويشرع فى ذكر هذا « الشرح والتوسيع » فى ستة عشر بنداً تتناسب حركتها وحياتها الداخلية مع الجدل الموضوعى للكون الذى تعبر عنه . وسنذكر هذه البنود مقرونة بشرح موجز .

يبدأ كل تفكير بتجريد أو « عزل » بعض مظاهر عملية الكون بتركيز بعضها وباستبعاد بعضها الآخر . ولا بد وان يبدأ التفكير بالموضـوعات

---

(١) انجلز : رد على دوهرنج صفحة ١٤٧

(٢) لنين : مذكرات فلسفية .

أو الأشياء . وعلى ذلك يكون أول مطلب للتفكير الجدلى بكل بساطة أن ننظر إلى الأشياء كما هى فى تفرقها — أو بندلنين (الأول) « موضوعيه الملاحظة (لا أمثلة ولا صور غير منطبقة على الواقع بل الشىء نفسه) » .

وبما ان هذه الخطوة الاولى تثلم جدل الواقع كان لابد وأن تكمل بخطوة اخرى تأسو هذا الجدل .

« لما كان الكون في حالة تغير مترابطة فاننا ندركه في أجزائه بفصل بعض عمليات ومظاهر جزئية ، فى الذهن ، كالمجتمع مثلا ووسائل الانتاج والاشياء المتغيرة والكلمات وتسمي هذه الاشياء معزولات . والمعزول هو شيء سحب من محيطه فى المكان والزمان والمادة . وعلى ذلك يكون هذا الشيء في ذاته وهماً . فما من شيء تبعا للجدل يمكن ان يخلص من المحيط ، هو وهم تام حيث لايكون له في الواقع وجود موضوعي . وأول خطوة في دراسة الجدل هي شق المعزولات ودراستها ثم تعيد الجدل بأن تنظر إليها مرة ثانية فى محيطها » (١)

وباتخاذ هذه الخطوة الثانية فقط الخاصة باعادة الجدل (وهذا عين نفى النفى) نتغلب على العزل الميتافيزيقى ، والاقتصار على جانب واحد ونرى العالم مرة اخرى فى حركته ، واتصاله . وهذه الخطوة الثانية هى بندلنين (الثانى) أن نجعل نصب أعيننا « مجموع العلاقات المتشعبة بين كل شىء والأشياء الاخرى » .

وليس كل شىء جزءاً من دورة العالم الأكبر فحسب ، بل هو أيضاً دورة لها ذاتيتها — فطبيعته لا يمكن أن تدرك بعيداً عن شكل التغير الذى يجرى عليه والملازم له . وعلى ذلك يكون البند (الثالث) « تطور الشىء أو الظاهرة وحركته وحياته الخاصة » .

وليس التطور فى هذه الحال شيئاً يحدث بشكل آلى دون علة ، على هيئة « لغز لاتفسير له » ولكن التطور دائماً نتيجة لشقاق داخلى فضلا عن العلاقات الخارجية التى تتضمن هى الاخرى شقاقاً . ولا يمكن شرح هذا التطور وادراكه عقلياً إلا على قدر

(١) ليفى : مقال في مظاهر المادية الجدلية ص١٨

لحص التناقضات الكامنة فى الشيء . ومن ثم بندلنين (الرابع) يتعين علينا أن نبحث عن « الميول (والجوانب) الداخلية المتناقضة الكامنة فى الشيء » كما يتعين بالبند (الخامس) أن ننظر إلى « الشيء (المظهر ، الخ) باعتباره حاصلا ووحدة للاضداد » ، ويتعين أيضاً أن ندرس البند (السادس) « صراع أو ظهور هذه الأضداد » .

وكل شيء فى نفسه شديد التعقيد ويتألف من جوانب ومظاهر لا حصر لها ويتصل بطرق شتى بالأشياء الاخرى . ولا يمكن أن يدرك إلا عن طريق عملية مزدوجة من تقسيمه إلى هذه الأجزاء (التحليل) والنظر إليها فى علاقتها المتبادلة (التركيب) . وهذه العملية لا ينضب معينها من حيث المظاهر العديدة التى تكشف عنها كل مرحلة من مراحل التحليل . وهذه المسائل تتضح بشكل أدق فى بنود لينين من السابع حتى الثانى عشر وهى كما يلى :

(السابع) وحدة التحليل والتركيب ، التقسيم إلى أجزاء منفصلة ثم جمع واجمال هذه الاجزاء بعضها ببعض .

(الثامن) علاقات كل شيء (أو ظاهرة الخ) لا من حيث تشعبها فحسب بل من حيث عمومها وشمولها . فكل شيء (أو مظهر أو عملية الخ) يرتبط بكل شيء آخر .

(التاسع) لا يقتصر على وحدة الاضداد بل يتعداه إلى انتقال كل مصير وكل خاصية وكل صفة وكل جانب وكل ميزة فى كل شيء (إلى ضد هذا الشيء ؟) .

(العاشر) عملية لانهائية فى الكشف عن الجوانب والعلاقات الجديدة الخ .

(الحادي عشر) عملية لانهائية فى تعميق معرفة الانسان بالشيء والمظهر والعملية الخ مبتدءاً بالمظهر ومنتهياً إلي الجوهر ومن الجوهر قليل العمق إلي الجوهر الاكثر عمقا .

(الثاني عشر) من الوجود المتماثل إلى العلية ومن إحدى صور الاتصال والاعتماد المتبادل إلي صورة أخري أعمق وأعم .

أما صراع الاضداد الذى يحدث التطور فيؤدى فى درجة معينة إلى انفجار ثورى وإلى بزوغ شيء جديد أو (صفة جديدة) . ونجد وصف الصفات الرئيسية لهذه القفزة الثورية من مرحلة إلى اخرى فى البنود الباقية من الثالث عشر إلى السادس عشر .

(الثالث عشر) تكرار بعض مميزات أو خصائص الخ المرحلة الدنيا في المرحلة الأعلي و . . .

(الرابع عشر) عود ظاهرى إلي القديم (نفى النفى) .

(الخامس عشر) صراع المضمون للشكل وبالعكس.
(السادس عشر) التحول من الكم إلى الكيف وبالعكس.
(الخامس عشر) و (السادس عشر) أمثلة على (التاسع).

هذه البنود الستة عشر تتضمن مميزات العملية الجدلية التي ذكرناها . وهي إلى جانب ذلك ، نظراً للتوسع فيها إلى حد كبير، تظهر العلاقة الحقيقية الحية فيما بينها فتدرك على نحو جدلي.

الباب الرابع
الجدل في المجتمع

« الحياة الاجتماعية عملية في جوهرها . وكل الاسرار التي تنحرف بالنظر إلى التصوف تجد حلها العقلي في العمل الانساني وفي فهم هذا العمل » .
ماركس

(١)

المادية الجدلية والتاريخ

تناولنا المادية الجدلية من الناحية التي تبدو اليوم أسلم الاتجاهات — اتجاه العامل الذي يسترشد فى عمله بمبادىء الماركسية، والذي يريد أن يفهم على وجه أتم النظرة العلمية التي تستخدمها . ولكننا فى عملنا هذا قد قلبنا النظام الحقيقي للتطور التاريخي فقد ظهرت المادية الجدلية ، تاريخيا ، كأولى النظرات التي اتخذت النشاط العملي الانساني فضلا عما يسمى « بالعالم الخارجي » موضوعاً لدراستها . ومن أجل هذا السبب بالذات نشأ عنها علم التاريخ والمادية التاريخية التي تعرف غالبا فى هذا البلد بالتصور المادي للتاريخ (الاساس النظري الضروري « للاشتراكية العلمية ») .

وصحيح أيضا أن الذين يسلمون بالاتجاه المادي الجدلي هم وحدهم الذين يعتبرون التاريخ علماً (أعني يقرون بأنه ينير طريق المستقبل وأنه لا يقتصر على « تسجيل » ما تلوكه الألسن عن الماضي) . ويبدو هذا فى كتاب حديث لبرتراند رسل (الحرية والتنظيم ، ١٨١٤ — ١٩١٤) حيث يصر على أن « التاريخ باختصار لم يصبح علماً بعد ويمكن فقط أن يعد لكي يبدو كذلك عن طريق التزييف والاغفال » (صفحة ٨) .

وتفنيدهذا الزعم البورجوازى ينحصر فى نجاح الماركسية المتصل فى التنبؤ بالاتجاه العام لحوادث العالم . فمنذ وقوع الأزمات العالمية واصطحابها بانتشار الفاشية ومنذ ظهور الدليل العملى على سبق أقتصاد النظام السوفيتى ـ تلك الحوادث التى لا يمكن أن تتضح الا فى حدود الماركسية ـ خلص كثير من المثقفين البورجوازيين إلى نور البيان . وليس مستحيلا أن يكافح برتراندرسل فى سبيل الوصول إلى الوضوح بالرغم من شكه . ولكن البورجوازية كطبقة لن تقنع بهذا التفنيد «النظرى» (مع العلم بأنه يقوم على تجربة اجتماعية موضوعية) . أما التفنيد الوحيد الذى يرونه مقنعا فهو التفنيد العملى بالقضاء الثورى عليهم.

ونصادف أيضاً هذا الاحجام عن أعتبار التاريخ علماً فى الاشتراكية الخيالية التى أشرنا اليها.

لقد اتهم الاشتراكيون المتقدمون على ماركس مفاسد النظام الرأسمالى ورسموا صوراً براقة لنظام اجتماعى أفضل ولكنهم عجزوا عن تفسير هذه المفاسد وعن ان يروا فى البرولتياريا قوة ستعيد بناء المجتمع . وبالنسبة لهؤلاء جميعا، كما قال انجلز «الاشتراكية هى التعبير عن الصدق المطلق وعن العقل والعدالة ولا تتطلب الا اكتشافها لتغزو العالم بفضل ما تنطوى عليه من قوة ؛ ولما كان الصدق المطلق مستقلا عن الزمان والمكان وعن التطور التاريخى للانسان فان مكان وزمان اكتشافها يكون من قبيل الصدفة البحتة — ويختلف ، فى نفس الوقت الصدق المطلق والعقل والعدالة لدى مؤسسى المدارس المختلفة ... » (١)

نشأت الماركسية ،تاريخيا،معارضة لاشتراكية الطوائف الخيالية المختلفة باعتبارها تفسيرا نظريا للصراع الطبقى الموجود بالفعل . وعلى حد تعبير البيان الشيوعى :

> «ان الاستنتاجات النظرية للشيوعيين لا تقوم بأى حال على الافكار أو المبادىء التى اخترعها أو اكتشفها زيد أو عمرو ممن يدعون بالمصلحين العالميين .
> «انها تعبر بشكل عام فحسب عن العلاقات القائمة التى تنشأ من الصراع الطبقى الموجود ، من حركة تاريخية تجرى تحت انظارنا . »(٢)

(١) انجلز . رد على دوهرنج ص ٢٥

(٢) ماركس وانجلز . البيان الشيوعى

وبعد أن خرجت الماركسية إلى الوجود فقدت النظرة الاشتراكية الخيالية (وهي مثالية فى جوهرها) مسوغها التاريخى. ولكن ظل يعتنقها الذين أرادوا معارضة الاتجاه الثورى السليم. ولا تزال هذه الاشتراكية الخيالية، المتجددة، توجد فى باطن مذهب الاصلاح الذى قام بدور مرد فى تاريخ الحركة العمالية الحديث. ولاظهار التباين بين الاتجاه الماركسى واتجاه الاشتراكية الخيالية سننظر فى طريقة عرض الكفاح الاجتماعى فى كتابين يعد كل منهما حجة، ولكن على نحو مختلف.

نقرأ فى الفقرة الافتتاحية لكتاب الاشتراكية، فى النقد والتأليف لمؤلفه ج. ر ماكدونالد (الذى ظل ثلاثين عاماً رائداً لنظريات مذهب الاصلاح فى بريطانيا): «تكمن فى المجتمع قوتان كبيرتان فى صراع على الدوام — العادة وهى قوة الركود والعقل وهو قوة التغير». ولكن إلى أى جانب ينحاز «العقل» وإلى أى تنحاز «العادة»، ومن عساه أن يكون الحكم وكيف نحكم اذا كان التغيير مقترحاً من جانبين متضادين، تلك بالتأكيد أسئلة لنا الحق فى وضعها. (١) والحقيقة الواقعة أن هذا الغموض الماكدونالدى النموذجى لايمكن أن يخدم إلا محاولة أخفاء الصراع الحقيقى بتحويل الانتباه إلى تأملاتهم المثاليـــة وأن هذه الفقرة لتتطلب مقارنتها بالافتتاحية التالية من الجزء الأول من البيان الشيوعى:

> « ان تاريخ كل المجتمعات التى توجد إلى الآن (فيما عدا المجتمع البدائي) هو تاريخ صراع الطبقات.
>
> « فالرجل الحر والعبد، النبيل والعامى، السيد والقن، صاحب الحرفة والأجير وفي كلمة واحدة الظالم والمظلوم فى تعارض دائم بينهما، يحملون صراعاً متصلا يختفي حيناً ويظهر حينا ...» (٢)

---

(١) كان ماكدونالد نفسه مثالا لكيفية استخدام «العقل» فى تبرير رفض التغير وقد لام الشيوعيين لاتخاذهم «عادة» تغيير كل شيء.

(٢) ماركس وانجلز. نفس المرجع

انه لفارق كبير بين هذا وغموض ما كدونالد ! كم هي واضحة قاطعة هذه الفقرة ، انها تكشف مباشرة عن الصراع الذى ظل (فى الازمنة التاريخية على الأقل) القوة المحركة للتطور الاجتماعى أعنى الصراع الطبقى ، ذلك الصراع الذى تنكر البورجوازية المنافقة اليوم بمجرد وجوده !

— ٢ —

التصور المادى للتاريخ

اذا طبقنا منهجنا الجدلى على المجتمع واذا اتخذنا من المجتمع فى حالة التطور موضوعاً لبحثنا فاننا ننظر مباشرة (كما هو مشروح فى الباب الثالث) فيما «يبطن فيه من قوى وجوانب متناقضة» . ويبدو للنظرة الأولى أننا وقفنا على التناقض الاساسى فى حقيقة صراع الطبقات التى بدت أهميتها من الفقرة السابقة المقتبسة من البيان الشيوعى .

ولكن «الطبقات المتنازعة» قد تغيرت بتطور المجتمع . فلما كانت كل ثورة اجتماعية تصل إلى ما يرمى اليه الصراع الطبقى فهى تقيم مكانه طبقات جديدة وتصادمات جديدة . وعلينا أن ننظر بعين الاعتبار أيضاً الى أن المجتمع البدائى لم يعرف الطبقات وقد تطور على الرغم من ذلك وأن المجتمع الشيوعى لن تكون به طبقات . وهذا يدعونا إلى تعميق نظرتنا فى البحث عن المنشأ الحقيق للتصادم الطبقى .

وجد ماركس أن اساس الصراع الطبقى يبطن فى التناقض بين وسائل الانتاج («القوى المادية المنتجة») والعلاقات الاجتماعية القائمة («علاقات الانتاج») . هذا هو التناقض الذى يظهر خلال فترة تاريخية معينة فى صورة احتكاك ظاهر بين الطبقات . وفى هذه الحال (فى النظام الرأسمالى مثلا) تمثل احدى الطبقات (البروليتاريا مثلا) قوى الانتاج فى سعيها الى الانتشار ، وطبقة أخرى (البورجوازية) تمثل العلاقات الاجتماعية التى تحد من قوى الانتاج .

ولكن التناقض الأساسى سيظل موجوداً فى المجتمع الذى ليس به طبقات وسيكون سبباً فى التطور التقدمى فى العلاقات الاجتماعية كلما تطورت قوى الانتاج نفسها.

وأوضح عرض لهذا « التصور المادى للتاريخ » ورد على لسان ماركس فى مقدمته لكتاب نقد الاقتصاد السياسى ومنها نقتبس أهم فقراتها :

« يدخل الناس مع بعضهم أثناء الانتاج الاجتماعي الذى يؤدونه في علاقات معينة لامحيص عنها مستقلة عن ارادتهم ، وتطابق علاقات الانتاج هذه درجة معينة من تطور قوي إنتاجهم المادية. ومجموع علاقات الانتاج هذه يكون البناء الاقتصادى للمجتمع ، وهو الاساس الحقيقى الذي تقوم عليه بنية(١) القانون والسياسة وتطابقه أيضاً أشكال معينة من الوعي الاجتماعي . ويكيف أسلوب الانتاج فى الحياة المادية بوجه عام ، الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية . وليس وعى الناس هو الذي يكيف معيشتهم بل على العكس فان معيشتهم الاجتماعية هي التى تكيف وعيهم . وعندما تبلغ قوى الانتاج المادية في المجتمع درجة معينـــة من تطورها تصبح فى صدام مع علاقات الانتاج القائمة أو ، وهذا هو التعبير القانوني لنفس الشيء ، مع علاقات التملك التى كانت تعمل في حدودها من قبل . فبعد ان كانت هذه العلاقات أشكالا لتطور قوى الانتاج تتحول إلي قيود لها . وحينئذ يبدأ عهد ثورة اجتماعية، ويصطحب تغير الاساس الاقتصادي بتبدل ، يختلف سرعة وبطئاً ، في كل البنية الضخمة التى تقوم عليه. وينبغى ان نميز دائماً ، عند البحث في مثل هذه التبدلات ، بين التبدل المادى لشروط الانتاج الاقتصادية التي تعينها دقة العلوم الطبيعية وبين الاشكال القانونية والسياسية والدينية والفنية أو الفلسفية وباختصار الأشكال الفكرية

---

(١) البنية كما ورد في « لسان العرب » هي الهيئة التى بنى عليها . وقد اخترت هذه الكلمة ترجمة لكلمة Superstructure ويقصد بها ماركس كما هو ظاهر من حديثه ، النظم الاجتماعية المختلفة . وهي تقوم على الاساس الاقتصادى للمجتمع وتتغير بتغير هذا الاساس . و[illegible] كانت كلمة بنية هى الهيئة التي لابد لها من اساس تبني عليـه والتى لابد متغيره بتغير هذا الاساس، فقد رأيت ان أستخدمها بهذا المعنى إلى ان تظهر ترجمة أفضل منها .

(المترجم)

التي يشعر الناس فيها بهذا الصدام ويكافحونه . وكما ان حكمنا على فرد مالا يقوم على الفكرة التي لديه عن نفسه فكذلك لايمكننا ان نحكم على عهد انقلاب كهذا تبعاً لوعيه ، بل يجب على العكس تفسير هذا الوعي عن طريق تناقضات الحياة المادية والصدام القائم بين قوي الانتاج الاجتماعية وعلاقات الانتاج . أن أي نظام اجتماعي لايتلاشي على الاطلاق قبل ان تتطور كل قوي الانتاج التي لها مكان فيه ، ولا تظهر أبداً علاقات إنتاج جديدة أرقي قبل ان تنضج شروط وجودها المادية فى قلب المجتمع القديم نفسه . وعلى ذلك فالجنس البشري لاينهض إلا باعباء يستطيع حلها ، إذ أنه يتضح لنا دائماً ، إذا أمعنا النظر ، ان العبء نفسه لايبرز إلا عندما تكون الشروط المادية لحله موجوده أو على الأقل في طريق التكون . ويمكننا ان نعتبر بشكل عام أساليب الانتاج الاسيوية والقديمة والاقطاعية والبورجوازية الحديثة مراحل متعددة في تطور التكوين الاقتصادي للمجتمع . وعلاقات الانتاج البورجوازية هى آخر صورة كفاح فى عملية الانتاج الاجتماعي — كفاح لايعني الكفاح الفردي بل من حيث هو ناشيء من شروط الحياة الاجتماعية للافراد ، وتخلق فى نفس الوقت قوي الانتاج التي تتطور في قلب المجتمع البورجوازى الشروط المادية لحل هذا الكفاح . وهذا الشكل الاجتماعي يكون إذن الفصل الختامي لمرحلة ما قبل التاريخ فى المجتمع البشرى . » (١)

(٣)

بعض الالتباس فى فهم التصور المادى للتاريخ

بالرغم من الجلاء الذى لاتخالطه شبهة فى الصيغة السابقة الخاصة بالتصور المادى للتاريخ وبالرغم من وفرة التعقيب عليها فى كثير من كتابات ماركس وانجلز لايوجد جانب آخر من الماركسية أشكل فيه عن عمد فى أغاب الأحيان أكثر من هذا الجانب . لذلك يتعين علينا أن نوضح عدداً من المسائل التى كثيراً ماتثار فى النقد .

يظهر من الفقرة المقتبسة أعلاه أن ثمة ثلاث عوامل متمايزة : (أولا) قوى الانتاج المادية (ويشار إليها أيضاً باسم « أساليب انتاج وسائل الحياة المادية »

(١) ماركس : مقدمة في نقد الاقتصاد السياسي.

(ثانياً) العلاقات الاجتماعية (أو « علاقات الانتاج ») وهى علاقات مباشرة للمنتجين فى المجتمع اللاطبقى وتتحول إلى علاقات طبقية فى المجتمع الطبقى .
(ثالثاً) أشكال الوعى الذهنية من (قانونية ، وسياسية ، ودينية ، وفنية ، وفلسفية) ...

والترتيب الذى وردت عليه هذه العوامل ليس أرتجالياً ولكنه يمثل العناصر المادية الرئيسية فى النظرة الماركسية للمجتمع . « ليس وعى الناس هو الذى يكيف معيشتهم ، بل على العكس فان معيشتهم الاجتماعية هى التى تكيف وعيهم . » « فاسلوب الانتاج » هو العامل النهائى الحاسم الذى يؤثر فى شكل المجتمع وفى الصراع القائم فى المجتمع وفى ضروب الأفكار التى تسوده . وبهذا المعنى يشار فى أغلب الأحيان إلى اسلوب الانتاج باعتباره « الأساس » فى حين انه يطلق على العلاقات الاجتماعية والوعى الاجتماعى اسم « بنية المجتمع » .

ومن الخطأ أن نفهم استخدام هذه التعابير فهما « آلياً » بمعنى ان كل شىء فى « البنية » يعينه « الأساس » بصورة جامدة . وكثيراً ما اعترض ماركس وانجلز على هذا التبسيط الزائد (بل التزييف فى الواقع) لنظرياتهما .

« ان العنصر الفعال في التاريخ ، تبعاً للتصور المادى للتاريخ ، هو « نهائياً » الانتاج وإعادة الانتاج في الحياة الواقعية . ولم يزعم ماركس ولم أزعم أنا أيضاً شيئاً أكثر من ذلك . فاذا حرف أحد حينئذ هذا إلى القول بأن العنصر الاقتصادي هو العنصر الفعال « الوحيد » فانه يحيله إلى عبارة مجردة مبهمة لا معنى لها . فالحالة الاقتصادية هي الاساس ولكن عناصر البنية المتعددة ، من الاشكال السياسية للصراع الطبقى ونتائجه والنظم التي تقيمها الطبقة المنتصرة بعد معركة ناجحة الخ ... وأشكال القانون وكذلك انعكاس كل هذا الصراع القائم على ادمغة المناضلين من نظريات سياسية وقانونية وفلسفية وأفكار دينية وتطورها إلى عقائد ، لها أيضا تأثير على مجرى الصراع التاريخى وترجح في كثير من الاحيان في تكييف « شكله » . وثمة تأثير متبادل بين هذه العناصر جميعاً . وفي هذا التأثير ومن بين الحوادث الكثيرة التى لا نهاية لها (أعنى الاشياء والوقائع التى يكون الترابط بينها طفيفاً أو مستحيلا إلى حد يدعوني إلى ان نعتبره غير موجود وإلى ان نهمله) تثبت الحركة الاقتصادية آخر الأمر انها مسألة ضرورية . وبخلاف ذلك يصبح تطبيق النظرية على أى حقبة تاريخية يختارها الانسان ، أسهل من حل معادلة بسيطة من الدرجة الاولى . » (١)

---

(١) انجلز — مراسلات مختارة من ماركس وانجلز ص ٤٧٥ .

ويتصل بهذا الخطأ فى الادراك أوثق اتصال الرأى القائل بأن الماركسية تتضمن « قدرية » جامدة ذلك بأن مجرى التاريخ « مقدر » له حتما أن يسير فى طريق ما دون أى تدخل لرغبات البشر بل وبالرغم منها . وهذه القدرية هى فى نهاية الأمر صوفية صرفة — فالله وحده هو الذى يمكن أن « ينظم » العالم ليسير على هذا النحو . ولا تعارض روح الماركسية فى الواقع رأياً كما تعارض هذا الرأى. وهى مع كونها شديدة البعد عن التقليل من أهمية الارادة الانسانية تنشد بالأحرى تفسيراً « لأصل » هذه الارادة . ولقد قال ماركس ان « الناس يصنعون تاريخهم ، ولكنهم لايصنعونه كما يروق لهم ، ولا يصنعونه فى ظروف يختارونها بأنفسهم بل فى ظروف وجدت عن طريق مباشر ومنحت ووصلت من الماضى . » (١) وهذه الظروف تتضمن عوامل من كل الأنواع الثلاث التى سبق شرحها ومن بينها « اسلوب الانتاج فى الحياة المادية » وهو العنصر النهائى الحاسم وعليه يتوقف فى آخر الأمر كل شىء آخر.

(٤)

التطور : الماركسية والتصورات الفابية

بينا كيف أدت الفلسفة الجدلية إلى أن يصبح التطور شيئا مألوفا وكيف سادت العلم الآراء التى ظهرت أخيراً والتى تقول بالتطور نتيجة لأمثال داروين . وفى حين أن هذه الحقيقة قد تكون مسلماً بها اليوم يوجد ميل كثير الانتشار للتقليل من قيمة الجدل وشعور بأن التطور فى حدود داروين وهربرت سبنسر هو فى آخر الأمر بديل « عصرى » . وهذه المسألة وثيقة الصلة بالخلاف القائم بين وجهتى

---

(١) ماركس : شهر برومير الثامن عشر — ص ١٣ .. (برومير هو الشهر الثاني في تاريخ الثورة الفرنسية ويبدأ من ٢٢ اكتوبر وينتهي فى ٢٠ نوفمبر . (المترجم)

(٢) الفابيــة اسم المذهب الذى يعتنقه الفابيون ، والتسميــة مشتقة من اسم فابيوس ماكسيموس كونكتاتور القائد الرومانى شديد الحذر . وتطلق علي بعض المفكرين ، واغلبهم من الانجليز ، الذين يقولون بامكان التحول التدريجي السلمي من مرحلة الرأسمالية إلي مرحلة الاشتراكية دون حاجة إلى الثورة وعن طريق الاقناع . وهم لا يأخذون بمبادىء ماركس الاقتصادية والفلسفية بل يستقون أراءهم من ريكاردو وبنتام . وفى مقدمة هؤلاء برنارد شو وسدني وبياتريس وب وكان دورهم مهماً جداً في تأسيس حزب العمال البريطاني الذي اتخذ من برنامج وضعه سدني وب عام ١٩١٨ أساساً لسياسته الاشتراكية .
(المترجم)

النظر فى تطور الانسان الاجتماعى ويمكن أن نلقبهما فى اختصار برأى الفابيين فى « حتمية التدرج » ورأى الماركسيين فى التطور خلال صراع الطبقات « بقفزات » ثورية لايمكن تجنبها.

والرأى الأول شائع بطبيعة الحال بين المفكرين البورجوازيين . ويتحدث بليخانوف عن نشأة هذا الرأى كرد فعل للميتافيزيقا القديمة يقول :

« كانت الميتافيزيقا القديمة قد وضعت على أم رأسها . وظلت الظواهر كما كانت من قبل يفصل بينها وبين بعضها هوة لاسبيل إلى عبورها . وقد اصبحت هذه الميتافيزيقا متمكنة من ادمغة المحدثين من اصحاب القول بالنشوء والارتقاء بحيث يوجد من « علماء الاجتماع » اليوم من يظهر فقراً تاماً فى الادراك فى كل مرة يكره فى دراسته على علاج موضوع الثورات . ويرون ان الثورة لايمكن ان تقترن بالتطور . وان التاريخ لايحدث قفزات . ولئن كانت الثورات بالرغم من هذه الحكمة تأخذ مكانها في التاريخ مع ذلك بل وثورات ضخمة أيضاً فان هذا لا يقلقهم على الاطلاق . ويتشبثون بنظريتهم فى اصرار . وادهى من ذلك امر الثورات التى تقض مضاجعهم فانها تعتبر فى رأيهم أمراضا » . (١)

وأضعف النقط فى رأى أصحاب نظرية « التدرج » هى انه يقتصر على شرح النمو والانحلال لأشياء « موجودة بالفعل » . وهو عاجز تمام العجز عن شرح أصل أى شىء يكون جديداً حقيقة . وهنا تظهر أهمية الجدل العظمى باعتباره منهجاً . فلما كان الجدل يوجه الانتباه إلى التناقضات التى ينشأ عنها التطور وإلى القفزات الثورية فى هذا التطور فهو يدرك أدراكا عالياً إلى أقصى حد معنى الحقائق التى يكشف عنها البحث .

حينما درس وب وهاموند وأتباعهما تاريخ نشأة النظام الرأسمالى الانجليزى ساروا فى جل عملهم على نفس الأساس فتناولوا بالبحث نفس « المادة الخام » من الحقائق كالتى يبحثها ماركس فى كتابه رأس المال . ومع ذلك فقد وصلوا إلى نتائج شديدة الاختلاف ! (ان صح أن نتحدث عن المقترحات التى ترمى إلى الاصلاح الاجتماعى كما لو كانت « نتائج » تاريخية) وقد أظهر التاريخ منذ ذلك الحين ، أى الجانبين كان على صواب : الجدليون الثوريون أم الفابيون الارتقائيون . ولا يرجع خطأ الفابيين إلى أى ضعف شخصى أو عرضى . فليس من شك فى ان لدينا أسماء ممتازة لمؤلفين لايمكن أن تكون قدرتهم أو عملهم الدقيق

(١) بليخانوف : مقالات في تاريخ المذهب المادى ص ١٧٣

موضعا للكلام . وكل مايؤخرهم هو عدم مهارتهم فى فهم الصراع الطبقى ، وفشلهم فى واقع الأمر فى البحث عن « الاتجاهات المتناقضة الداخليـــة فى باطن الشىء » . أما الأمر الذى مكن ماركس من اكتشاف « قانون الحركة الاقتصـــادى فى المجتمع الحديث » فهو حيازته لنظرة « أكثر شمولا وأعظم ثراء فى مضمونها من نظرية الارتقاء الشائعة » (١) أعنى نظرية التطور الجدلية المتعددة الجوانب .

(١) لنين : كارل ماركس ص ١١

الباب الخامس
الجدل والمنطق

« الجـدل هو نظرية المعرفة (لدى هيجـل) وفى المذهب الماركسى »
لنين .

(١)

الجدل والتفكير

ذكرنا فى الباب الثالث أمثلة للمنهج الجدلى فى الطبيعة وفى التاريخ وفى الفكر الانسانى .وعالجنا بنود لنين « الستة عشر » وهى على التحقيق تلخيص للمنهج الجدلى وقواعد على الذهن أن يتبعها عند تأمل الطبيعة الجدلية للواقع . وسنتناول فى هذا الباب . بشكل أوضح ، النشاط الفكرى نفسه أى « منطق » عملية التفكير .

أن المشكلة الأساسية التى تبرز هنا (فى الميدان الذى يسمى « نظرية المعرفة » فى كتب الفلسفة) هى تلك المسألة العتيقة : هل فى مقدورنا تحصيل معرفة وثيقة عن الواقع ؟ فاذا كان ذلك كذلك أعنى اذا كانت أفكارنا ليست محض خداع واذا كانت قادرة على أن تعكس حقيقة مادية « خارجة » عنا (بمعنى أن وجودها لا يعتمد بحال من الاحوال على احساساتنا) فماذا عسى أن يكون المحك الذى يظهر صدق أفكارنا ؟

وقد انتهينا من اعادة الجواب المادى الرئيسى على هذه الأسئلة .ورأينا كيف تكشف الحياة العملية عن صدق تصوراتنا وتثبت سدادها فى كل خطوة ، ولكن لم يزل علينا أن نبين بالتفصيل كيف تتم هذه الصلة بين الفكر والواقع . وهذا يثير « مشكلة الصدق » .

(٢)

الصدق : المطلق والنسبي

يعتبر الفيلسوف الآلى المعرفة الانسانية (بشكل مثالى على الأقل) صورة مطابقة للواقع ..واذا تحدث عن « عدم اكتمال » المعرفة فان هذا يشبه فى ذهنه لغزاً محيراً لا زالت بعض اجزاءه غير معروفة. وعلى هذا النحو مثلا يتطلع برتراندرسل (الذى لا تمنعه ميوله المثالية عن أن يكون آليا) إلى الوقت الذى يصبح فيه العلم منهجا كاملا للمعرفة . وعلى نفس النحو وضع كثير من الفلاسفة فى الماضى مذاهبهم على انها «الكلمة الأخيرة» و «الصدق النهائى» . وهيجل نفسه الذى كشف عن التطور الجدلى للفلسفة السابقة كلها نحى نحوا جعل مذهبه فى أعلى درجة من درجات هذا التطور . ولعل العنصر المشترك فى كل هذه الاتجاهات أن يكون الفكرة القائلة بامكان الحصول بشكل مباشر على « الصدق المطلق » وصياغته فى صورة « مذهب » . أما الخطأ فانما يحدث عفوا ويمكن تصور القضاء عليه قضاء تاما .

ولدينا من جهة أخرى الاتجاه المضاد لهذا تماما والقائل بأن «الصدق كله شىء نسبى » وهو اتجاه مذهب الشك والمذهب الذاتى والمذهب النسبى . ويتضمن هذا الرأى أن العلم والمعرفة الانسانية كلها فى تغير مستمر، هذا من الناحية العملية فضلا عن الحجج المثالية النموذجية (مثل التى ذكرت فى الباب الأول) وتذهب الى أنه لا يوجد فى الواقع شيئا يسمى « صدقا » .

وكل من هذين الاتجاهين يثبت ميزة أساسية من ميزات المعرفة الانسانية ولكن كلاهما يتردى فى الخطأ حينما يؤكد على نحو غير جدلى ، أحد الجانبين فقط . أما المادية الجدلية فتعرف وحدها كيف تجد المطلق فى النسبى والنسبى فى المطلق . وحين يناقش انجلز هذه المسألة (فى كتابه رد على دوهرنج) يضرب مثلا بالقانون العلمى ، قانون بويل فى تمدد الغازات بتغير الضغط . فقد « دحضت » التجارب التى أجريت منذ أيام بويل بأجهزة أكثر دقة ، هذا القانون وحصلت على شواذ له . ولكن هذا لا يعنى أن قانون بويل فاسد ، وانه فاسد بشكل مطلق لأنه لم يصل إلى الصدق بشكل

مطلق أذ ان قانون بويل كان قانونا تقريبيا فى تسجيل الحقيقة ، فهو صدق نسبي يتضمن ، بمعنى ما ، نواة الصدق المطلق . و « دحضه » لا يعنى نفى نواة الصدق التى يحتويها بل ابداله بتقريب أدق (١) .

وقانون بويل مثال يوضح صفات المعرفة الانسانية بوجه عام . فعلى قدر اشتمال الصدق النسبي الذى نلم به على نواة لا تعطب يكون حصولنا على صدق مطلق أى انه يعكس الحقيقة الموضوعية . وتنمو معرفتنا بالصدق المطلق بتجمع الصدق النسبي ونقائه . وعلى ذلك فان نمو العلم لا يتم باقامة أو هدم النظريات اعتباطا ، بعملية « نفى » فوضوى تخريبي . بل هى عملية نمو جدلى يكون معنى النفى فيها ، نفى النظرية النيوتنية مثلا ، استغراق مضمونها فى تركيب أشمل هو نظرية اينشتين .

والمحك الأساسى الذى يقرر صحة عملية النمو هذه هو دون ريب الاختبار العملى أى المقارنة المستمرة بين النظرية والتجربة العملية التى توجد فى أساس كل تصور على (مادى جدلى) عن العالم .

قال لنين فى مناقشة هذه المسألة ، مسألة العلاقة بين النسبى والمطلق ، وخاصة فى محاجة « النسبيين » :

« ستقول ان هذا التميز بين الصدق النسبي والمطلق غير محدود . وسأجيب : نعم ، هو غير محدود ، إلى درجة تحول دون أن يصبح العلم عقيدة بالمعنى السيء ، أي دون ان يصبح شيئاً ميتاً ، متجمداً ، متصلباً ، ولكنه فى نفس الوقت ، محدود ، إلى درجة تسمح لنا بأن نفصل أنفسنا على نحو قاطع لا مرد فيه من

---

(١) يمكن ان يستخدم قانون بويل ، في الواقع ، للبرهنة على قانون تحول الكم إلى الكيف . وينص هذا القانون على أن حجم الغاز يقل كلما زاد الضغط بحيث يمكن نظريا وتحت ضغط معين ان نعتبر حجم للغاز يتضاءل حتى يصل إلى العدم . والواقع عملياً ان الغاز يتحول إلى سائل قبل الوصول إلى هذه النقطة الفرضية .

النزعة الايمانية (١) واللاأدرية (٢) ومن المثالية الفلسفية وسفسطة من أتوا بعد هيوم وكانت . وهنا يقوم حد لم تلق إليه بالا وهذا أدى بك إلى التردي فى حمأة الفلسفة الرجعيـة . ذلك هو الحد الفاصل بين المادية الجدليـة والنسبية». (٣)

(٣)

الجدل فى مقابل السفسطة والميتافيزيقا

ان مسألة الصدق الرئيسية التى فرغنا من ذكرها تمدنا بمثل طيب عن الصراع الذى تشتبك فيه المادية الجدليـة على الدوام مع عدوين مختلفين ؛ انه « صراع فى جبهتين » :

التفكير الميتافيزيقى المشار اليه فى الباب الثانى من جانب ؛ ويرمى إلى جعل كل الفروق والعلاقات «مطلقة» ولذلك يعجز عن ادراك طبيعة «المنهج» . وفى حين انه قد يجيز من الآراء ما يقول بالارتقاء باعتبـاره نتيجة للنمو التدريجى فان ظهور الكيفيات الجديدة ليس له محل فى تفسيره ، وحدوث التطور خلال المتناقضـات أمر شاذ فى عرفه ! ومن الجانب الآخر يقوم الأمر الذى يبدو هو والتفكير الميتافيزيقى على طرفى نقيض ، أعنى الرأى القائل بان « كل شىء نسبى » . وتلك هى الفلسفة الانتهازية بعينها ! ويزعم هـذا الرأى انه جدلى والحقيقة انه لا ينطبق

---

(١) الايمانية : مذهب يدعي أن العقل الانساني عاجز عن معرفة حقيقة الاشياء وانه لا يقدر الا على تنظيم وصياغة المظاهر . أما الحقيقة المطلقة فيتوصل إليها عن طريق ملكة سامية خاصة يخاطبها الوحي . ويقابل هذا المذهب في الفلسفة الحديثة المذهب العقلى . ويطلق اسم الايمانية أيضاً على كل المذاهب التى تسلم « بالحقائق النقلية » وتعترف لها بقيمة لا تقل وقد تزيد عن قيمة الحقائق العلمية . (المترجم)

(٢) اللاأدرية : راجع هامش ص ٨ (المترجم)

(٣) لنين : المادية والنقد العملى .

على الواقع اطلاقا ، وفى حالة تسمح له بتأييد أى اتجاه معقول ، أو لا يؤيد شيئا !

وبالرغم من التضاد الشديد بين هذين الاتجاهين فكلاهما مضاد للمادية الجدلية على السواء ، على أن وجودهما متحدان عند فرد واحد بالذات من الامور المألوفة (كما هى حال برتراندرسل) . وهذه الانحرافات جميعها تؤدى إلى المثالية حتما .

(٤)

المنطق الجدلى

لكى نتجنب هذا « الجمود والتصلب » الذى يحذرنا لنين من الوقوع فيه ، نحتاج إلى فن خاص فى التفكير هو فن المنطق الجدلى (الذى يتناول المسائل بنفس الروح التى عالجنا بها طبيعة الصدق المطلقة والنسبية) .

ويرد هذا الجدل ، من الناحية التاريخية إلى بعض فلاسفة اليونانيين القدامى ، أما فى العصور الحديثة فقد كانت الفلسفة المثالية الالمانية وما قام به هيجل على وجه الخصوص ، هى التى بعثت المنطق الجدلى وزادت ثرائه . وأعظم أعمال هيجل ، كتابه « علم المنطق » (وهو مقسم إلى ثلاثة أقسام : نظرية الوجود ونظرية الجوهر ونظرية الأمة)يحتوى معلومات كثيرة على أعظم قدر من الأهمية حتى فى الوقت الحاضر . ولكن الأساس المثالى فى هذا « المنطق » يحول دون استخدامه فى صورته الحالية دون اصلاح أساسى يجرى على القاعدة المادية فى وحدة النظر والعمل . .

ولا جدال فى أن المادية الجدلية ، كما سبق أن بينا ، بزغت من مثالية هيجل الجدلية . وكان ماركس وانجلز فى الأصل يؤلفان جانبا من « الجناح

الأيسر » لمدرسة هيجل ، جناح من أداروا « الجدل » ضد منهج استاذهم وحاولوا استخراج نتائج ثورية بدلا من النتائج السياسية الملفقة التى خلص اليها أستاذهم ..

ولئن كانت لا توجد دراسة قائمة بذاتها تتناول المنطق المادى الجدلى (إذ لا يوجد من بين مؤلفات ماركس وانجلز ولنين كتاب باسم « المادية الجدلية ») الا أن هذا المنطق يدرس بالفعل فى كل الاعمال الماركسية وعلى الخصوص فى أمهات هذه الأعمال مثل رأسمال حيث لها أهمية كبرى فى صلب هذا العمل ..

(٥)

الجدل والمنطق الشكلى

ان « المنطق » الذى ناقشناه يختلف تمام الاختلاف عما يعرف عادة باسم المنطق أعنى المنطق الشكلى الذى يبحث فى الاقيسة والذى يوجد فى الكتب المدرسية . ولا غنى عن المنطق الشكلى فى بحث التجريدات التى صيغت فى مراحل التفكير الأولى (الباب الثالث) . وجوهر طريقته أن يحافظ على التعريفات التى يصل اليها ويحول دون اختلاطها . فهو يقوم حينئذ على توسيع بعض مبادىء رئيسية معينة كمبدأ الذاتية والتناقض و« قانون حذف الوسط » الذى ينص على أن الشىء اما أن يكون شيئا ما بالذات (وليكن « ا ») أولا يكون هذا الشىء بالذات (وليكن « لا ا »). ولا يمكن أن يكون « ا » و« لا ا » فى آن واحد.

وهذا المنطق الذى يمكن أن يسمى « منطق السليقة » له مسوغاته التامة فى حدود معينة . وهو بالتأكيد أمر لابد منه فى نطاق هذه الحدود : وهى نفس الحدود التى تظل التجريدات التى يبحث فيها سليمة فى نطاقها . ولكن لما كان يقوم على

اعتبار هذه التجريدات أشياء مطلقة فى الوقت الحالى ولما كان يغفل بالضرورة علاقاتها المتبادلة وتحول الصفات أو الاشياء إلى أخرى لذلك فان المنطق الشكلى يعجز عن أدراك عملية التغير الداخلية وعن أظهار طابعها الجدلى . ومن هنا تنشأ الحاجة إلى المنطق الجدلى الذى فصلت القول فيه ، بوجه خاص فى هذا الباب وفى الباب الثالث . أما اذا تعدى المنطق الشكلى ميدانه فانه يؤدى إلى التفكير الميتافيزيقى الذى تناولناه بالنقد .

وقد وضح بليخانوف علاقة المنطق الشكلى بالجدل فى قوله . «وكما أن القصور الذاتى حالة خاصة من حالات الحركة يكون الفكر كذلك فى خضوعه لقوانين المنطق الشكلى (فى خضوعه لقوانين الفكر الأساسية) حالة خاصة من حالات الفكر الجدلى» (١) . وقد شبه انجلز هذه العلاقة بالعلاقة القائمة بين الرياضيات الدنيا والرياضيات العليا (٢).

(٦)

هل المادية الجدلية فلسفة

كثيرا ما نصادف السؤال عن المسوغات التى تدعونا إلى تسمية المادية الجدلية «فلسفة» . وهل نحن فى حاجة ماسة إلى «فلسفة» ؟

لا يوجد من غير شك شيء تشترك فيه المادية الجدلية وفلسفة «التأمل» (المثالية) العتيقة التى كانت تحل التأملات المفروض أن العقل قد توصل إلى اكتشافها ، محل الحقائق العلمية .. ولكن المادية الجدلية تعتبر من هذه الناحية أعلى درجة بلغها تطور الفكر الانسانى وتشبه فى ذلك الاشتراكية باعتبارها خاتمة التطور الاجتماعى عن طريق الصراع الطبقى . ويعبر انجلز عن ذلك بقوله :

---

(١) بليخانوف : المسائل الاساسية فى الماركسية ، باب الجدل والمنطق

(٢) انجلز : رد علي دوهرنج ص١٤٨

« .. المادية الحديثة لابد وان تكون جدلية ولم تعد فى حاجة إلى فلسفة تعلو على العلوم الاخرى . ولما كان على كل علم منفصل ان يوضح مركزه بالنسبة لمجموع الاشياء الضخم وبالنسبة لمعرفتنا بالاشياء فإن قيام علم خاص يبحث فى هذا المجموع أمر لاداعى له . أما الاشياء التى لازالت قائمة بذاتها من كل الفلسفة الغابرة فهى علم التفكير وقوانينه أى المنطق الشكلى والجدل . واندمج كل شيء آخر فى العلم الايجابى للطبيعة والتاريخ » (١) .

فاذا قبلنا أن نسمى ما يبحث فى « علم التفكير وقوانينه » بالفلسفة (وكل الفلسفات السابقة بحثت أيضا فى هذا مهما يكن شأن المسائل الأخرى التى تكون قد حاولت القيام بها) فحرى بنا إذن أن نسمى المادية الجدلية فلسفة . وثمة سبب قوى آخر لاستخدام هذا التعبير وهو انه يبرز أهمية النظرة الجدلية وتعارضها مع الفلسفات الميتافيزيقية المثالية التى تزدهر فى ظل النظام الرأسمالى والتى تعرقل الحركة الثورية .

---

(١) انجلز : نفس المرجع ص ٣١

الباب السادس
الجدل والسفسطة

« ان طريقة كل السفسطائيين في كل الأزمان هي الاستشهاد بأمثلة واضحة الصلة بأحوال غير متشابهة في الاساس ». لنين

(١)

التشويه المثالى للجدل

ليس الجدل سحراً . ولا يقدم صيغاً غريبة لها صفات سرية يتوصل بها إلى نتائج عجيبة غير منتظرة . ولعل أكثر قوانين الجدل التى نالها قسطاً وافراً من سوء الفهم ، كما بينا فى الباب الثالث ، هى فى الواقع أكثرها انتشاراً أى الخصائص التى تظهر عموماً فى كل عملية . وعلى هذا النحو تهيؤ لنا منهجاً لفحص العمليات فحصاً عملياً فى ميادين معينة متعددة . ولو أنها لاتمحو بحال من الأحوال الحاجة إلى الفحص المفصل الذى يكون من اختصاص هذا العلم أو ذاك من العلوم الخاصة . وتنحصر قيمتها فى المعونة التى يمكن أن يؤديها المنهج العلمى بأن يوضح المميزات التى يحتمل أن تكون مهمة للعملية موضوع الاختيار ، وبأن يبرز المعنى الصحيح للحقائق المكتشفة .

ومن الأهمية بمكان تأكيد هذه النقطة إذ من المألوف التقائها بنوعين متضادين من التحريف . ويتعين علينا هنا ، فى الواقع ، أن نقوم بذلك « الصراع فى جبهتين » الذى

---

(١) لنين : الحرب الرأسمالية

شرحناه فى الباب الخامس .

فثمة ، من جانب ، الرأى الآلى الذى يرى أنه مادام الجدل عاجزاً « بنفسه »
عن أن يذكر لنا أى شىء وما دام البحث العلمى المفصل ضرورى فى أى حالة
أخرى بنا إذن أن نستغنى عن الجدل باعتباره جزءا غير مفيد من الترف
الميتافيزيقى وأن نلزم جانب « الحقائق الجافة » . وقد أجيب على هذا الاتجاه بشكل
عملى فى الباب الرابع ، حيث بينا أهمية الادراك الجدلى للارتقاء فى فهم التطور الاجتماعى
فهما صحيحاً .

وثمة ، من الجانب الآخر ، رأى الجدليين المثاليين الذين حاولوا فى الواقع
استخدام الجدل للبرهنة على أشد الأشياء غرابة بنوع من التلاعب اللفظى الذى
يستساغ فى سهولة تتناسب مع جهل المرء بموضوع البحث الحقيقى . ونصادف
هذا النوع من الجدل « الذاتى » (١) عند ماكس استرنر الذى سلخه دون رحمة
ماركس وانجلز الماديان الجدليان العظيمان ، لأنه حاول أن ينسج التاريخ
من خيط واحد هو « نفى النفى » . فمثل هذه الصيغة واستخدامها على هذا النحو
يمكن أن تستغل فى البرهنة اللفظية على أى شىء كما بين ذلك ماركس وانجلز
فى تهكم .

وسنهتم فى هذا الباب بوجه خاص بهذا التحريف المثالى للجدل ، وهو شائع
بين أدعياء الماركسية . وليس للبراهين الجدلية التى من هذا النوع أى أساس
وبذلك تصبح مجرد سفسطة . وعلى هذا يمكن أن نكتب المعادلة الآتية ، جدل
ذاتى تساوى سفسطة .

---

(١) « ذاتى » لأنه يعتمد على هوى الفرد الذى يفكر لا على حقيقة موضوع الدراسة .
أما الجدل المادى « فموضوعي » في جوهره .

(٢)

سوء فهم

نبدأ بالاستاذ ماكورى أحد المشتركين فى ذلك العمل المسمى ويالعجب
جوانب المادية الجدلية . ويتضمن مقال (١) الاستاذ ماكورى كثيراً م
التحريف بحيث يضيق المجال عن مناقشتها هنا . وأكثر مايهمنا هو محاول
أن يسخر لمآربه قانون « نفى النفى » وأن يبرهن على حتمية الفاشية عن طريق ه
القانون ! ويكمل ماكورى هذه البراعة بأن يظهر بعض العيوب المزعومة فى المادية الجد
التى يذكر أنها :

« تنتمي إلي الفلسفة البيولوجية أو العضوية التى تتوقف على مشكلة النشوء والارتقاء فى القرن التاسع عشر . وهي من هذه الناحية تصبح فى عداد نفس المجموعة التي تنتمي إليها مثالية هيجل وواقعية الاستاذ الكسندر . »

وبغض النظر عن ان الاستاذ ماكورى « ينكر » النظام الواقعى للتط
التاريخى (لأن المادية التاريخية ، بل والفلسفة الهيجلية أيضاً نمتا قبل أن تظ
فى البيولوجيا والعلوم المتصلة بها الاكتشافات المهمة التى أدت إلى انتشار التفكي
الارتقائى) نتناول النتيجة التى يستخرجها من هذا البرهان . إذا كانت الماد
الجدلية فلسفة بيولوجية ، كما يقول ماكورى ، وجب عليها أن تنكر المظا
« السيكلوجية » العليا فى الانسان (أى انها تتهم بانكار « الفردية » وهذ
هو الاتهام التقليدى الذى ترفعه البورجوازية فى وجه الماركسية !) . ولك
تحاول أن تجعل النشاط الانسانى الخاص صادراً عن وعى . فلابد اذن وأن تكو
« متناقضة مع نفسها » . « وهذا مايفسح المجال أمام الفاشية . وينمى النفى داخ
المادية الجدلية » . فالفاشى ، كما يذكر لنا ، « يبنى موقفه على اسس المادية الجدلي

(١) ألف الاستاذ ماكورى أيضاً كتاب « فلسفة المذهب الشيوعى » حيث عرض آر
على نحو أكثر تفصيلا .

نمى ، الجانب البيولوجى ، فيها ولا يمكن دحضه إلا عن طريق فلسفة أكثر
راداً ، يتعهد الاستاذ ماكورى باقامتها . اذ يقول فى تواضع جم ، ان مهمتنا
ى نفى النفى بحيث نعيد اقامة الجانب الايجابى الرئيسى فى المادية الجدلية فى
ستوى أعلى ،

ويسرع إلى اضافة قوله ان كل هذا لا ، يبرر ، الفاشية . انما يبرهن فقط
لى انه من المستحيل تجنب المرور بمرحلة الفاشية فى التطور ! ومهما يكن من أمر ،
هنا يؤكد مرة اخرى ، فى امكاننا أن نتجنب الفاشية بأن نمر خلال مرحلتها فى ظل
سيطرة الاشتراكية ، (!!) . وفى حالة مايبدو هذا القول غريباً يطلب منا أن ، ننظر
ى ماهو حادث فى روسيا ، .

ويصعب حقاً الاستظهار على هذا البرهان ، باعتباره نموذجاً لأقصى مايصل
يه التهور فى السفسطة . يبدأ ، بنفى ، الصفات الأصيلة فى المادية الجدلية (فهى ،
رأينا ، ليست بحال ما ، فلسفة بيولوجية ، ، بل هى قبل كل شىء ، أن صح
ن نبرز جانباً واحداً ، متأصلة فى واقع المجتمع الانسانى) ثم يشرع فى البرهنة
لى وجوب مرور التاريخ بمرحلة فاشية وبذلك (وليحافظ على هذه الصيغة) يكون
د أعد العدة لاعتبار ، اما دكتاتورية العمال فى الاتحاد السوفيتى أو حكومة العمال المحتملة
ى بريطانيا فى المستقبل ، ، مرحلة فاشية تحت السيطرة الاشتراكية ، ! فهلا يكون الانسان
لى صواب إذا ماأطلق على الفلسفة التى تؤدى إلى مثل هذه الاستنتاجات العجيبة اسم
، فلسفة الفاشية الاشتراكية ، ؟

ويمكن أن نظهر على مدى الاختلاف فى طريقة تناول المادية الجدلية لمثل
هذه المسائل من دراسة دت (١) العلمية المنظمة فى كتابه ، الفاشية والثورة

---

(١) بالم دت المفكر الانجليزي الحر ورئيس تحرير صحيفة « ليبور منثلى » . له ماض طويل في الدفاع المرير عن الحرية ، أدي به إلى السجن في بعض الاحيان . وله إلى جانب كتابه السابق الذكر كتاب قيم عالج فيه مشكلة الهند.

(المترجم)

الاجتماعية » . ولا نقابل فى هذا العمل عدداً من الجمل الاحتيالية بل دراسة واقعية دقيقة للفاشية — « من جميع نواحيها » . حيث تقدر القوى الطبقية الواقعية حق قدرها وحيث يتضح امكان تجنب الكادحين المرور بسعير الفاشية باصلاح المراكز الطبقية فى الوقت المناسب على أساس دولى . وفى سبيل تسهيل نمو هذا العمل الطبقى يجب فى المحل الأول تطهير الأذهان من الشوائب التى تحول دون ادراك البروليتاريا وحلفائها للأهداف ادراكاً جلياً . ومثل هذه الأفكار المشوشة الخطرة التى ناقشناها يجب أن تكون فى صدر الأشياء التى نعمل على اكتساحها حتى تصبح فى ذمة التاريخ.

(٣)

« تصويب » لنين او الماركسية من اجل التعاون الطبقى

لايقتصر تحول الجدل إلى سفسطة على أيدى الأساتذة البورجوازيين الذين يحاولون أن يسدلوا على بعض المذاهب القديمة مسوح الجدل بل يوجد كذلك لدى بعض الماركسيين فرضاً ، فى الحركة العمالية الذين تعوزهم معرفة أعمق. وأبرز مثال على هذا النوع هو فرد كازى الذى يذكر الناشر عن كتابه « منهج فى التفكير » فى المقدمة أنه « فريد من حيث هو عرض مبسط للمادية الجدلية التى كثيراً مايساء فهمها وغالباً ماينالها التحريف . . » وسنرى الآن على أى نحو كان « فريدا » .

يتحدث كازى عن « التوفيق » بين المثالية والمادية ويستشهد بنصوص من انجلز حتى يوحى ايحاء باطلا تمام البطلان بأن التفكير الجدلى قد دحض أو ألغى المثالية والمادية على السواء . وسنرى فى الباب القادم كيف يتلاءم هذا الرأى مع الميل العام إلى المساومة فى فلسفة الاشتراكيين

الديموقراطيين (١) ويهمنا هنا أكثر من أى شيء آخر، أصل هذا الرأى الذى يمكن أن يرد لبعض أخطاء وقع فيها جوزيف ديتزجن الذى تتخذ منه مدرسة ماركسية معينة فى بريطانيا اماما (يفضل ماركس وانجلز) فى الجدل.

وهذه الأخطاء بالذات التى ارتكبها ديتزجن تجد خير تعبير عنها فى الفقرة المقتبسة التى اختارها كازى لصدر كتابه : « الحركة الساكنة والسكون المتحرك ؟ ذلك هو التناقض الموفق (٢) الذى يمكننا من التوفيق بين جميع المتناقضات ».

وعلى هذا النحو يبرز ديتزجن ويتبعه كازى فى هذا الرأى، الوفاق بين الاضداد بدلا من الصراع بينها. وأدى هذا الاتجاه بكازى إلى أن ينازل لنين الذى قرر أن « وحدة (التقاء، تشابه، تطابق) الاضداد أمر مقيد، مؤقت، انتقالى، نسبى. أما الصراع بين الاضداد التى تتنافى فأمر مطلق كما أن التطور والحركة مطلقان، سواء بسواء » .(٣)

ولم يكن كازى ليحتمل انحياز هذا الرأى إلى « جانب واحد ». فيؤكد أن « وحدة » الاضداد مطلقة كالصراع بينها سواء بسواء، ويتهم لنين بانه لم يكن « واضحا تمام الوضوح فى النظرية الجدلية » بل وانه فى الواقع « جدلى ردىء ». وهذا الخطأ، كما يقال أدى به إلى الضلال فى مشكلة العقل والمادة ولو أنه كان فى المسائل التى تحتاج الى حلول سياسية ثورية سريعة نموذجاً يستحق الدراسة » . وسنرى فى الباب

---

(١) الاشتراكية الديموقراطية : مذهب الاحزاب التابعة للدولية الثانية التى ظل الماركسيون يتعاونون معها إلى ان اتضح موقف هذه الاحزاب الانتهازى وخضوعها للسياسة الاستعمارية وخاصة بعد ظهور العهد الاستعماري للنظام الراسمالي فانشق عنها الماركسيون وشن عليها لنين حرباً عواناً فضح فيها خيانتها لمصالح الطبقة العاملة . . (المترجم)

(٢) الموفق بكسر الفاء وتشديدها. (المترجم)

القادم من الذى «ضل فى مشكلة العقل والمادة» . ويعنينا هنا أن ندافع عن لنين فى هذه المسألة بالذات ونفترض أن من المحتمل أن تكون سياسته العملية الصحيحة («القدرة على الحلول السياسية الثورية السريعة» فى لغة الانتهازيين!) قد كانت لها صلة ما بنظرية سياسية صحيحة. وغريب حقاً أن جدليا فى طوق الرفيق كازى بمجهوداته المتواضعة فى تصويب لنين، بغض النظر عن ماركس وانجلز، قد أغفل الترابط الجدلى بين النظر والعمل!

وفى استطاعتنا توضيح المسألة محل البحث عن طريق الأمثلة. ولنأخذ مثل «النظام الرأسمالى الكالح الميت» الذى قال به كازى نفسه. فاذا قيل من حيث انه «شيء» ساكن يكون «نسبيا» فمعنى ذلك ان من الممكن اعتباره نظاماً ثابتاً للمجتمع (بغض النظر عن تزايد الصراع الطبقى فى داخله). اذا نظرنا اليه نظرة محدودة وضيقة جداً، نظرة من يفكر بشكل كلى فى حدود المرحلة الرأسمالية بل فى حدود الرأسمالية فى فترة معينة. ولكن اذا نظر إلى النظام الرأسمالى من ناحية العالم المتطور ككل وفى علاقته بغابر المجتمعات ومستقبلها أعنى من أقصى ما يمكن أن نرتفع اليه فى «الاطلاق» فان صراع الاضداد هو الذى يكون أساسياً فى هذا الحال. وهذا يوضح لماذا نقول، وماذا نعنى حينما نقول أن وحدة الاضداد أمر «مقيد، مؤقت، انتقالى، نسبى» فى حين أن صراعها أمر «مطلق كما أن التطور والحركة مطلقان. سواء بسواء».

وبدون ادراك هذه المسألة يستحيل ادراك جدل المطلق والنسبى أو لماذا نستطيع القول بأن «المطلق متضمن فى النسبى» وألا نقول ببساطة أن «المطلق هو النسبى». وقد أدى الفشل فى تفهم هذا إلى تلف فى الميزان الجدلى وفى الجدل حيث استحال إلى نوع من التلاعب اللفظى حول أقوال مثل «المطلق هو النسبى والنسبى هو المطلق» التى توجد بوفرة فى كتاب كازى. وهو فى هذا أيضاً يسير أثر أخطاء جوزيف

ديتزجن الذى تناوله ماركس بالنقد من أجل «قصوره فى التطور الجدلى وطريقته فى الدوران داخل دائره» (١)

(٤)

ماركسية الاشتراكية الديمقراطية الالمانية المتحولة

أن اكثر أساليب السفسطة شيوعاً أبسط فى أساسها أعنى أقل سفسطة، من البراهين التى تناولناها . ولكن «طريقة كل السفسطائيين فى كل الازمان هى الاستشهاد بامثلة واضحة الصلة باحوال غير متشابهة فى الاساس» . ومن أمثلة هذا الضرب من السفسطة الفجة التحليل الذى يقوم به كونز (الاشتراكى الديمقراطى الالمانى سابقا والذى تحول اليوم إلى متجول يبيع آراءه ضد الشيوعية «الماركسية» فى حركة العمال البريطانية) على التعبير «رأسمالية الدولة» فى كتابه الذى ظهر حديثاً بعنوان «المدخل إلى المادية الجدلية» . ينقل كونز ترتيب لنين للاشكال الاقتصادية الخمس التى تضمنتها السياسة الاقتصادية الجديدة (٢) فى روسيا عام ١٩٢١ والتى تضمنت نظماً مختلفة مثل الانتاج الفلاحى للاستهلاك الشخصى والانتاج الفلاحى البسيط للسوق والرأسمالية الخاصة ورأسمالية الدولة («الرأسمالية تحت اشراف وتنظيم الدولة البروليتارية(٣)») كما عبر عنها لنين وهو نظام فى العلاقات الاقتصادية التى تحددها «عقود الامتياز» أعنى تأجير الصناعة للافراد الرأسماليين والاشتراكيين . ومنذ ذلك الحين، كما قرر

---

(١) ماركس: مراسلات مختارة بين ماركس وانجلز.

(٢) السياسة الاقتصادية الجديدة : هي السياسة التي انتهجها لنين بعد سيطرة الطبقة البروليتارية علي الدولة حيث سمح بوجود الراسمالية فى اقسام من الاقتصاد القوى . وزال هذا الاقتصاد الراسمالي تحت ضغط الاقتصاد الاشتراكى الذي ازدهر فى الاتحاد السوفييتي بتنفيذ مشروعات السنوات الخمس. (المترجم)

(٣) لنين. في حديثه عن الضرائب في ١٥ مارس ١٩٢١

ذلك ستالين فى المؤتمر السابع عشر للحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى ، صفى تماما الاقتصاد الرأسمالى فى اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية وتضاءل نطاق الزراعة الفردية فى المناطق الريفية حتى أصبح مركزها ثانويا .. فى حين أن النظام الاجتماعى الاقتصادى الخامس ، النظام الاشتراكى ، قد أصبحت له أسبقية لا تجارى وهو القوة المسيطرة الوحيدة على كل الاقتصاد القومى (١) » .

ويميل كونز إلى الموافقة على حدوث تغيرات ضخمة فى الاتحاد السوفيتى ولكنه يعتقد أن هذه التغيرات يجب أن توصف على نحو يختلف قليلا عن وصف ستالين . يقول « قضى على الرأسمالية الخاصة فى هذه الفترة قضاء يكاد يكون تاما ولكن الرأسمالية البيروقراطية قد نمت إلى درجة ضخمة . ومما ينافى الروح العلمية إلى حد كبير التحدث عن الخطوات الواسعة نحو الاشتراكية فى الاتحاد السوفيتى وتجاهل أثر العوامل الأخرى فى الموقف وعلى وجه الخصوص العامل الرابع (أى رأسمالية الدولة) » .

ولعل هذا الاستدلال أن يكون أبلغ مثل للسفسطة ، لأنه يعتمد اعتماداً تاماً على الالتباس فى معنى « رأسمالية الدولة » وهو أمر طبيعى لدى المفكرين البورجوازيين وان كان غير مسموح به « للماركسيين » . ونحن نعلم أن سيطرة الدولة الرأسمالية على صناعة ما ليست اشتراكية بعد ، ويمكن أن تسمى مع هذا بحق رأسمالية الدولة . أما فى الدولة الاشتراكية فالصناعة التى تقوم بها الدولة صناعة اشتراكية بالمعنى الذى لا يحتمل تأويلا . ولكن التعبير « رأسمالية الدولة » (بالمعنى السابق بيانه الذى صاغه لنين) لا ينطبق الا على الضرب من الرأسمالية التى تنظمه الدولة والذى أبيح فى روسيا فى بدء السياسة الاقتصادية الجديدة ولكنه صفى منذ ذلك الحين . ولا بد وأن ننتهى إلى هذه النتيجة اذا استخدمنا التعابير فى المعنى الذى أراده لها لنين . ولا يبق الا أن كونز يستخدمها فى معنى آخر وهو المعنى الذى يرمى اليه الفاشست فى حديثهم عن النظام السوفيتى باعتباره « الرأسمالية البيروقراطية للدولة » .

---

(١) ستالين: تقرير للمؤتمر السابع عشر للحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى

ومن الواضح فى هذه الحال أن استدلاله ليس تحريفا لا مراء فيه فحسب بل ويخدم أيضاً أسوأ الغايات الرجعية . ويسوق كونز هذا الاستجواب « أى عامل عاقل سيقدم التضحيات دفاعاً عن نظام تسوده الرأسمالية البيروقراطية للدولة » ويبدو كرهه الأزرق للاتحاد السوفيتى فى كل مايكتب.

وفى جزء آخر من كتابه يبحث كونز فى « وحدة الأضداد » بنفس الروح التى تناولها بها كازى ويحاول أن يجد عن طريقها « انسجاماً طبقياً » يفسر الفاشية . وبديهى جداً ان هذا « المبحث » فى الجدل يحيله إلى أشد السموم العقلية فتكاً . ووجوده فى كتابات كونز وهو باعتباره اشتراكياً ديموقراطياً ألمانياً قديماً يعد أبعد مايكون عن سلامة النية سياسياً ، وأقل مايقال فيه انه أمر شنيع.

(٥)

الجدل والموقف الدولى

كان نص لنين الذى اتخذنا منه شعاراً لهذا الباب قد وجه فى الأصل إلى انتهازيى الدولية الثانية الذين برروا اشتراكهم فى الحرب الاستعمارية مستشهدين بموقف ماركس وانجلز ازاء حالة معينة قبل تطور الاستعمار . قالوا ان « ماركس وانجلز كانا على استعداد للمساهمة فى حرب رأسمالية ولأن يقررا من من المتحاربين كان يمثل القوى المتقدمة تحت الاختبار ، فحرى بنا إذن أن نقوم بنفس العمل » وهم بذلك يتجاهلون تمام التجاهل الخصائص الجديدة فى الموقف التى تجعل تقرير أى الفريقين المعتدين مثل « التقدم » أمر لامعنى له والتى تجعل « تحويل الحرب الاستعمارية إلى حرب أهلية » المطلب المباشر الواضح للاشتراكيين فى كل البلاد .

واليوم ترتكب بعض الأقسام المنتمية إلى الحركة الاشتراكية الخطأ عينه ، ولكن من الجهة المقابلة ، تلك الأقسام التى تنهت (متأخرة نوعاً ما فى بعض

الأحيان) إلى حقيقة الاستعمار ، ولكنها فشلت فشلا تاماً فى رؤية العوامل الجديدة فى الموقف العالمى مثل الاتحاد السوفيتى والفاشية . ولا زالت تكرر بلا تبصر النداءات التى رددت منذ عشرين عاماً . وسيندهش بعض هؤلاء « الماركسيين » المحدثين (وهم فى الحقيقة أبرياء تماماً من الماركسية — اللنينية) دهشة عظمى حين قراءة نصيحة انجلز مثلا ، التى أسداها للاشتراكيين الديموقراطيين الألمان عام ١٧٨٠ — وهى التأييد الملائم للحرب لدفع المعتدى فضلا عن الابقاء على استقلال الطبقة العاملة — ولا شك انهم سيسخرون من هذا الجزء الأخير (« فكيف يكون للطبقة العاملة خط مستقل مالم تعارض الحكومة فى كل مسئلة ؟ ») .

وطبيعى ان أى ماركسى صميم لن يلجأ إلى تبرير السياسة الواجب اتباعها فى الموقف الدولى فى الوقت الحاضر بالاستشهاد بنداءات عام ١٨٨٠ فضلا عن نداءات عام ١٩١٤ . والمهم تطبيق القاعدة الرئيسية فى الماركسية مع فحص كل مشكلة فحصاً موضوعياً . . وقد تذمر انجلز منذ أمد طويل من الانتهازيين الذين « يسبغون أهمية على المسائل السياسية العامة المجردة . وبهذا يخفون المشاكل الحقيقية المباشرة التى تبرز من تلقاء نفسها عند أول ثوران للحوادث ، وعند أول أزمة سياسية » .

ولا يسعنا إلا أن نقول لأولئك النظريين المتعصبين الذين يتشبثون بصيغهم المقدسة (التى يفترض انها متضمنة « للصدق المطلق » وصحيحة فى كل الأحوال) قولة انجلز : « ان ماينقص هؤلاء السادة جميعاً هو الجدل » .

الباب السابع

الصراع الفلسفي في الوقت الحاضر

«الفلسفة الحديثة حزبية كما كانت من الفي سنة خلت»
لنين

(١)

المذاهب الفكرية والصراع الطبقي في ظل مرحلة الاستعمار

كل مرحلة معينة فى تطور النظام الرأسمالى وصراع الطبقة العاملة تبدع صورة خاصة بها من الوعى الاجتماعى أعنى من « المذاهب الفكرية » . وهذا القول مجرد إيضاح للجدل الاجتماعى الذى درس فى الباب الرابع . ويصدق هذا القول على الأيام الاولى من النظام الرأسمالى حينما انعكس الدور التقدمى الذى قامت به البورجوازية فى اتخاذ فلسفتها اتجاهاً مادياً . ويصدق أيضاً فى الوقت الحاضر ، فى مرحلة الاستعمار وهى مرحلة الانحلال للنظام الرأسمالى الاحتكارى المتطفل ، تلك المرحلة التى أطلق عليها لنين وصف «عشية الثورة البروليتارية» .

ويمكننا أن ندرك ثلاث مميزات رئيسية للمرحلة الحاضرة تظهر كل منها بوضوح فى الوعى الاجتماعى فى الوقت الحالى .

فثمة ، فى المحل الأول ، صفة انحلال وتطفل النظام الاستعمارى ، تلك الصفة التى تنمو بنفس النسبة التى يتزايد بها الكبت الطبقى والوطنى . وهذا يؤدى إلى تحول قسم كبير من البورجوازية إلى الاتجاهات الدينية الصوفية الرجعية ، وهى نفس الاتجاهات التى حاربها شيوخ المفكرين البورجوازيين من قبل . وتبزغ فى نفس الوقت مادية جديدة هى المادية الجدلية الثورية التى تلهم صراع العمال .

وثمة ، ثانياً ، حقيقة مهمة وهى ان ظروف مرحلة الاستعمار تودى إلى انقسام

فى حركة الطبقة العمالية ، انقسام بين الانتهازيين «ارستقراطية العمال» (والمتأثرين بها)، والقسم الثورى من العمال . اذ يوائم الانتهازيون بين أنفسهم والنظام الرأسمالى ويضحون بالمصالح العامة للطبقة العاملة ما داموا يبقون على مصالحهم الشخصية . وهم يؤلفون على هذا النحو درعاً لا غنى عنه للنظام الرأسمالى . ولما كان نشاطهم كله يقوم على الرغبة فى المساومة فليس غريباً إذن أن تزدهر الفلسفات المساومة فى ظل تشجيعهم .

ثالثاً ، نتيجة لهذا الانقسام وما يترتب عليه من عدم التنظيم فى طبقة العمال ، يصبح من السهل (اذا لم يسبق العمال إلى اصلاح صفوفهم) على البورجوازية أن تنتقل إلى الديكتاتورية الفاشية السافرة التى أفصحت عن «مناهجها الفكرية» فى حرق الكتب وفى صيحاتها الهستيرية عن «الدم والأرض» وفى النظريات الفاشية «العنصرية» ذات الصبغة غير العلمية الصوفية المنحلة. وسنتناول فى هذا الباب النحو الذى تظهر عليه هذه العوامل فى الصراع الحالى بين الاتجاهات الفلسفية .

(٢)

فلسفة المساومة

فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين (حوالى الوقت الذى أنضجت فيه الرأسمالية مرحلتها الاستعمارية) انتشر فى أوروبا وامريكا اتجاه فلسفى يقوم على محاولة التغلب على التضاد القديم بين المذهب المادى والمذهب المثالى . ورحب بهذا الاتجاه «الماخى» (سمى بهذا الاسم تبعا لأكثر ممثليه تنظيما وهو الألمانى ارنست ماخ) على وجه الخصوص الانتهازيون فى الحركة الاشتراكية وانتشر هذا الاتجاه فى روسيا حيث استدعى من جانب لنين أبلغ ضروب النقد تدميرا . وسنناقش هذا الاتجاه، خاصة فى أعمال أبرز ممثلى هذه المدرسة من الانجليز أعنى برتراند رسل . وسيجد كل من يقرأ كتاب لنين «المادية والنقد التجريبى» أن الحجج التى ساقها ضد ماخ تنطبق على رسل كلمة كلمة فى الغالب .

يقدم برتراند رسل فى مواضع عدة بياناً ضافياً عن نسبه الفلسفى. فهو يقول فى مقال (ضمن مقالاته فى الشك) عن «الفلسفة فى القرن العشرين»:

« نمت منذ أمد قصير ومن عدة اتجاهات ، فلسفة توصف غالباً بانها واقعية .. وليس من المحتم أن تكون واقعية اذ انها تتفق في بعض أشكالها مع مثالية بركلي. انها تنحو شيئاً فشيئاً إلى تبنى رأى جيمس فى ان خامة العالم الأولية ليست ذهنية ولا مادية ولكنها شيء أكثر بساطة وأعمق أساساً ينشا عنها كل من العقل والمادة ».

ويطلق رسل فى مواضع أخرى على هذا الرأى اسم «مذهب الوحدة المحايده» ويذكر أن «ماخ» أشار اليه فى كتابه «تحليل الاحساسات»، ونمى وتقدم فى كتاب وليم جيمس «مقالات فى التجريب الاساسى». ودافع عنه جون ديوى فضلا عن الأستاذ پرى وبعض الواقعيين الامريكيين» (المجمل فى الفلسفة).

ومن الممتع أن نناقش شركاء رسل فى الفلسفة، ويزعم انه عقلى وخصم «للتأمل المسمم». وثمة فى المحل الأول اعتراف رسل بأن الحركة التى يؤلف جزءاً منها تنتمى إلى بركلى (الأسقف المتفلسف الذى نذكره من الباب الأول). ومما لا شك فيه أن الماخيين يشتقون من بركلى وهيوم حججهم ضد «العقيدة الراسخة» فى وجود المادة بنفس الروح الذى بيناه آنفا فى الباب الأول.

وثمة، ثانياً، الحقيقة التى لها دلالتها وهى أن وليم جيمس، الذى يدعوه رسل بمؤسس كل من «المذهب الواقعى» و«البراجماتزم»(1)، يشرع علناً فى البحث عن تبرير فلسفى للتيولوجيا. والغريب ان رسل يعرض الحيلة التى حاول جيمس عن

---

(1) « البراجماتزم » ويعرف بمذهب الذرائع. يرتبط اسم هذا المذهب باسم وليم جيمس الامريكي ارتباطاً وثيقاً ولعله ان يكون صاحب الفضل في وضع صيغته الاولي وقد تناوله بالشرح ودافع عنه من بعد جون ديوى. ويقول أصحاب هذا المذهب بان كل فكرة او حكم عقلى يكون صحيحاً اذا حقق غاية عملية. وبقدر ما ينجح في تحقيق المنفعة او الغاية العملية يكون صدقه أو خطؤه فهو وسيلة وذريعة لتحقيق هذه الغاية. (المترجم)

طريقها أن يفعل هذا — بقوله «يتصر جيمس للبراجماتزم باعتباره وسيلة فى عرض الامانى الدينية فى صورة فروض علمية» (مقالات فى الشك) . ويبدو لرسل أن هذا الاتجاه من جانب جيمس أمر عرضى بحت . فلا يرى أن هذه الميول التيولوجيه من جانب شركائه ملازم طبيعى للاتجاه المثالى فى الفلسفة . ولا يرى انه قد خطى بالفعل الخطوات الأولى فى المنحدر الزلق نحو المثالية وأن بعض شركائه قد انزلقوا بعيد فى هذا الطريق (١) .

ويبلغ التشابه بين رسل وماخ فى كثير من الاحيان حداً يدعو إلى الدهشة . فقد كتب ماخ : «ليست الأشياء (الاجسام) بل هى الألوان والاصوات والضغوط والاماكن والأزمان (أى ما نسميه عادة بالاحساسات) العناصر الحقيقية الواقعية للعالم» . ويقول رسل : « ... شواهد الحس الواقعية وموضوعات الابصار واللمس والسمع المباشرة ، غير عقلية بل فيزيقية صرفة ومن بين خلاصة مكونات المادة » (التصوف والمنطق) . وائن كان نص رسل قد يبدو «مادياً» للنظرة الأولى فان الاستطراد فى القراءة يقضى على هذا الوهم . فرسل الذى تبلغ به الطيبة حد التسليم مع الرأى الشائع بأن الشىء المنظور شىء فيزيقى الا أنه «يحتمل أن نكون مخطئين فى فرض استمرار هذا لشىء فى الوجود فى الوقت الذى نكف فيه عن النظر اليه» .

وعلى هذا النحو يتخذ كل من ماخ ورسل نقطة بدأ بعينها أعنى الظواهر الذهنية الذاتية ، باعتبارها العناصر الأصلية فى الكون . وهذه بداية «مثالية ذاتية» صرفة (انظر الباب الأول) ويمكن أن توصف فلسفتهم كلها ابتداء من هذه النقطة وما يليها بأنها محاولة محكمة عن طريق أشد أنواع الغموض التواء لتجنب النتائج المثالية الذاتية الواضحة التى تتضمنها نقطة البدء فى فلسفتهم .

---

(١) من الأمثلة الساطعة على ذلك أيضاً وبتهد الذى تعاون مع رسل من قبل وأصبح الآن متصوفاً بمعنى الكلمة .

وقد تعلم كل من الكاتبين فى أعمالها الأخيرة اخفاء نقطة البدأ هذه فى كثير من الحذر. فيتحدث ماخ حديثاً مائعاً عن « عناصر العالم »، ويتكلم رسل عن « المحسات » أو عن « الذاتيات » (مغيراً اسمها باستمرار) التى يعتقد انها تؤلف « الخامة الأولية » التى يبنى منها كل من « العقل » و « المادة ». ولكن فى كل مرة تبحث فيها حقيقة هذه « العناصر » و « الذاتيات » على نحو أكثر دقة يتضح انها ترد مباشرة اما إلى عناصر الاحساس أو إلى عناصر لا « تعريف لها » إلا فى حدود الاحساس فتكشف على هذا النحو فى وضوح عن الاصول المثالية الذاتية لهذه الفلسفة « المحايدة ».

« ان العلامة المميزة لكل كتابات الماخيين جميعهم هى الدعوى الحمقاء فى التغلب على المادية والمثالية والعلو على هذا التناقض الباطل. ولكن الواقع أن هذا التآخى برمته ينزلق باستمرار فى المثالية ويقود صراعاً مستديماً غير منقطع فى وجه المذهب المادى » (١). تلك الجملة التى كتبها لنين قبل ظهور كتابات رسل النموذجية فى « الوحدة المحايدة » بما يقرب من عشرين عاماً لازالت تبدو فعالة حتى يومنا هذا. فهى دليل على السواء، على « حداثة » النقد اللينينى للمرحلة الاستعمارية وعلى عجز البورجوازية الجوهرى عن انتاج أى جديد فى هذه المرحلة آخر مراحل الرأسمالية.

ومن السهل فى حالة رسل أن نرى بوضوح عظيم الرابطة بين فلسفته العامة ونظرته السياسية، وقد عبر عنها بهذه الكلمات: « أنا بريطانى من حزب الأحرار ولى غرام بريطانى بالمساومة » (مقالات فى الشك). ولا يريد رسل شخصيا تأييد النظام الرأسمالى إلا بقدر مايريد أن يكون مثالياً (وقد عبر عن الموقف الفلسفى الذى يرتضيه بقوله « لست مادياً ولكنى لازلت بعيداً عن المثاليه »). ولكن الواقع ان رسل اذ يحرف ويشوه المذهب الماركسى فى كثير من كتاباته

---

(١) لنين: المادية والنقد التجريبي

وإذ ينظر إلى الرئيس روزفلت أكثر مما ينظر إلى الاتحاد السوفيتى ليبين للانسانية طريق التقدم فلا شك انه يقدم للرأسمالية ذلك التأييد ولكن بجانب هذا يجب أن نقر أيضاً بحقيقة لها أهمية متزايدة فى هذه الأيام وهى كراهية رسل الخالصة لأشكال الحكم الرأسمالى الفاشية الخشنة كما انه يعادى (وسيأتى بيانه) فى الفلسفة كثر أشكالها الرجعية بغياً.

والحق ان رسل لا يمكن أن يتهم « بالاتساق » لا فى فلسفته ولا فى سياسته. أما فى الفلسفة فهو أكثر ما يكون سذاجة فى كتاباته الاولى ولا يكاد يهتم باخفاء ما تتضمنه من مثالية ذاتية. أما كتاباته المتأخرة (تحليل المادة) فتميل إلى نوع من « اللاأدرية الآلية » ان صح هذا التعبير. وكل مؤلفات رسل يسودها هذا النوع من التفكير « الميتافزيقى » الذى حيا حياة طويلة فى انجلترا (ولم يمت على الاطلاق فى الفلسفة المثالية الألمانية). وترانا مدفوعين بالنسبة لرسل إلى اعادة ما قاله ماركس عن برودون منذ زمن مضى: « يريد أن يكون مركب موضوع فيصبح خطأ مركباً. ويود أن يسمو كما لو كان عالماً فوق البورجوازيين والبروليتاريين، فلا يعدو أن يكون بورجوازياً صغيراً يتأرجح باستمرار إلى الأمام وإلى الخلف بين رأس المال والعمال، بين الاقتصاد السياسى والشيوعية » (١).

(٣)

الديموقراطية الاشتراكية والفلسفة

ليس غريباً أن تشيع الفلسفة الانتهازية « الماخية » على هذا النحو بين المبشرين المحدثين للتساوم الطبقى — أعنى الديموقراطيين الاشتراكيين. ونستطيع

---

(١) ماركس: بؤس الفلسفة ص ١٠٧

أن نستخرج الأمثلة من جميع البلاد انظهر العلاقة الواسعة الانتشار بين مذهب ماخ ومذهب الاصلاح . وسنتناول فى هذا الفصل محاولة قامت لتهريب هذه الفلسفة تحت ستار الماركسية إلى ميدان الحركة العمالية البريطانية .

ومؤلف هذه المحاولة الفائقة هو كازى بعينه الذى أكرهنا على نقد آراءه المتعلقة بالطابع المطلق لوحدة الاضداد فى الباب الأخير . ويفهم كازى كما بينا هنالك، هذه الوحدة على انها مبدأ « توفيق » بين أى زوج من الأضداد فى مركب أسمى منهما — وهذا تصـــور « تلفيق » محض ، وأشـــد مايكون بعداً عن الجدل (١) .

هذا الرأى يؤدى بكازى ، كما حدى برسل وماخ ، إلى تعنيف كل من الماديين والمثاليين لتمسكهم بطرف واحد ، وإلى أن يخرج نتاجه الخاص من « الجدل » أو « مذهب الوحدة البروليتارى » ، كما قدم كل من رسل وماخ « الوحدة المحايدة » المزعومة غير البروليتارية ، باعتبارها فلســـفة أسمى من المادية والمثاليـة . . .

ويؤدى منهج كازى به إلى مثل هذه الدرر اليانعة . « ليس ثمة فكر محض بمعنى وجود فكر دون موضوع للتفكير ، كما أنه لايوجد أى موضوع بدون التفكير . وحتى الموضوع المجهول نعرف عنه انه مجهول . كما نعرف عنه انه موضوع ما . وعلى ذلك يكون لكل موضوع فى الحقيقة وجهان . فهو اما شىء ذاتى — موضوعى أوشىء موضوعى — ذاتى كما يتراءى للانسان أن يسميه (منهج فى التفكير ص ١٥) . ولعل هذا أن يكون مذهب « الوحدة » فى أنق صوره . وهو مذهب مثالى مافى ذلك شك . . .

ونفس المنهج يجعله بوجه خاص يزدرى « كبار الفتية الذين حصلوا معرفة عميقة »

---

(١) هذا الرأي فى الواقع هو المقابل من جميع الوجوه للرأى الجدلى الذي يقول بأن الصراع بين الاضداد هو الذي يؤدي إلى تلم الوحدة بينهما وبزوغ شيء «جديد» . ولاسبيل إلى «التوفيق» بين هذين الضدين ، « جدل » ماركس و « تلفيق » كازي .

فيقولون بأن « المادة شرط لوجود العقل ولكن العقل ليس شرطاً لوجود المادة » (نفس المرجع ص٥٧) . ويذكر كازى من برج « مذهب الوحدة » العالى ان « المادة » و « الوجود » لهما نفس المعنى وان « العقل ليس إلا جزءاً من « المادة » (أياً كانت دلالة هذا) (نفس المرجع ص ٥١) . ويقول فى مكان آخر ان « الحرارة » و « الحركة » أجزاء من المادة — وهذا ضرب من التشويش لم ينحدر إليه إلا فى القليل النادر أسوأ من بسطوا المذهب المادى الآلى القديم .

وليس من شك فى أن كازى قد وقع فى هذا الخلط نتيجة لبعض أخطاء جوزيف ديتزجن السابق الذكر الذى حاول أيضاً أن يضفى على تصور المادة معنى أكثر شمولا بحيث يرجع إليها « كل ظواهر الواقع وكذلك قدرتنا على التفكير » . وقد نقد لنين رأى ديتزجن هذا لأنه يلغى أساس التفرقة بين العقل والمادة ويبهم طريقة بزوغ ظواهر الاحساس والوعى باعتبارها من وظائف المادة فى درجة معينة من تطورها .

ولكن هذه الأخطاء فى حالة ديتزجن كانت فى أساسها ، كما لاحظ لنين ، أخطاء فى المصطلحات فحسب وتعلق بها بعد هذه الأثناء نفط بعض « الماركسيين » الراغبين فى التحول عن المذهب الماركسى إلى المذهب الماخى ، وصاغوها فى قالب عقيدة (سماها « مذهب الوحد البروليتارى » ابن جوزيف ديتزجن — ايوجين ديتزجن — الذى عرض هذه الفلسفة الملفقة على انها وسيلة للتوفيق بين الجناح الاصلاحى والجناح الثورى فى الديموقراطية الاشتراكية) .

ويسلم ديتزجن فى موضع آخر تسليما تاماً بأهمية « المسألة الأساسية فى الفلسفة » . فيقول : « والحق ان المسألة التى تبحث فى أيهما أسبق ، العقل أم المادة ، تتضمن أيضاً مشكلة المسلك الصحيح إلى العدالة والصدق » . ولكن كازى وياللاسف ، وقد اقتيد إلى « الضلال فى مشكلة العقل والمادة » ، فقد التبس عليه أيضاً « المسلك الصحيح إلى العدالة والصدق » ! فخطر حاله بين قبيلة الأخلاقيين البورجوازيين من بنتام إلى هتلر ! وهذا هو الواقع لأنه إذ يرفض وضع المسألة فى صورة مصالح طبقية على النحو الماركسى المادى ، فانما يتبنى كازى التعريف البورجوازى المنافق للاخلاق (الذى يرجع إلى بنتام بوجه خاص) « ان العمل الأخلاقى هو ،

كما قلنا ، ذلك العمل الذى يخدم المصالح العامة» (نفس المرجع ص ١٦٤) . اما ان هذا التعبير الغامض «المصالح العامة» يخفى التضاد التام بين مصالح طبقتين متضادتين فى المجتمع الحالى - لذلك يستخدمها دائماً النظريون البورجوازيون كما تظهر فى برنامج النازى ، وان النقد الماركسى كان ينصب دائماً على الاتجاه الذى يدعى انه «فوق الأحزاب» ، فان كازى يجهل هذه الأشياء جميعاً جهلاً تاماً ، فتردى إلى هذه الدرجة فى المستنقع الضحل الذى يؤمه البورجوازيون المنحطون المتعصبون. «وثمة تحذير آخر... فالطريق المبتعد عن ماركس والمائل إلى «مذهب دبزجن» و«مذهب ماخ» طريق إلى التهلكة ، لا بالنسبة للافراد ولا بالنسبة لزيد وعمرو بل النسبة للحركة» (لنين) (١) . وليس من شك فى ان كازى ومن تبعه قد سلكوا هذه «الطريق إلى التهلكة» .

(١) لنين : المادية والنقد العملى

الباب الثامن
مسائل الثقافة الاشتراكية

(١)

وحدة النظر والعمل فى الثقافة الاشتراكية

كانت الايضاحات السياسية للمادية الجدلية ، التى استعنا بها حتى الآن مستمدة من مشاكل صراع الطبقة العاملة فى ظل النظام الرأسمالى . أما فى هذا الباب فسنتناول (وان كان ذلك فى كثير من الايجاز) بعض المسائل التى تبرز فى الميدان الثقافى بعد استيلاء العمال على السلطة . وسنرى كيف تنير نفس الفلسفة الثورية السبيل إلى حلها .

أشرنا من قبل إلى الآفة الخطيرة فى الثقافة الرأسمالية ، أعنى الفصل بين النظر والعمل ، التى تنشأ من الصورة الخاصة التى يتخذها تقسيم العمل فى ظل النظام الرأسمالى ـ ومن نتائج تقسيم العمل أيضاً فى النظام الرأسمالى ، «التفريع» العام لأوجه النشاط ، الأمر الذى يظهر فى كلا الميدانين العملى والنظرى . وقد وقف على هذه الحقيقة فى الوقت الحاضر كثير من رجال العلم . وأبرزها الأستاذ ليفى فى أحد كتبه الحديثة قال :

> « فى نطاق حركة مقسمة ، كحركة العلم ، إلى فروع تكاد تكون مانعة مثل الرياضيات والطبيعة والكيمياء والبيولوجيا وعلم النفس والهندسة إلخ تكون للقيم المتصلة بتطور الفرد علاقة ضعيفة بالحركة الأوسع نطاقاً : فكل مجموعة تسلك طريقها فى أثر حاجتها الخاصة وتقيم بنفسها معايير الحكم على أهمية هذه الحاجات . وحينما يوجد خطر دائم من شأنه ألا يسمح ولا يشجع إلا الدراسات التى لها صلة مباشرة بالمران الصناعى فى الفترة القائمة يكون هذا بمثابة صمام أمن ظاهر ، غير انه لامفر من أن يؤدى إلى نشأة مجموعات من القيم خاصة بكل موضوع تعسر الملاءمة بينها . وهذه الملاءمة لن تتم إلا إذا تبين العلماء وظيفة العلم الاجتماعية وجذوره الممتدة فى المجتمع . وليس ثمة إلى الآن هيئة تمثلهم فى هذه الناحية » .

وهذا التفريع لأوجه النشاط يكون الأساس للطبيعى للنظرة الميتافيزيقية أو الآلية الضيقة التى رأينا أنها صفة ملازمة للتفكير البورجوازى . وكما أن المادية الجدلية تتغلب على هذا العزل الميتافيزيقى فى التفكير وترى أجزاء العالم فى ترابطها الواقعى ، فكذلك الثقافة الاشتراكية التى تقوم على الانتاج (العملى والنظرى) الموجه ، تتغلب على ما فى تقسيم العمل البورجوازى من ضيق بأن تقضى على فروعه المتصلبة كما تقضى فى المحل الاول على الفصل الحادث بين النظر والعمل . ولعل كل صفات الثقافة الاشتراكية هذه تبدو بوضوح اليوم فى الاتحاد السوفيتى وتتمثل بطبيعة الحال فى اشكال متباينة أشد التباين . وسنقتصر على ذكر بعض الأمثلة التى وقع عليها الاختيار كيفما اتفق .

فى حديث أحد العلماء السوفيت فى مؤتمر مربى المواشى القدماء وقادة الحزب وأعضاء الحكومة (عن جريدة موسكو الاخبارية اليومية فى ٢١ فبراير ١٩٣٦) قال :

« انى أعتقد ان مهمة رجال العلم تنحصر فى الوقت الحاضر في دراسة التجارب العديدة وتعميمها في الحال، تلك التجارب التى تجمعت من خبرة الاستخانوفيين(١). أما مناهج هذه الدراسة فتوعز بها الحياة نفسها . وبينما ظل كل من رجال العلم والعمال ، الذين يشتغلون في حظائر تربية المواشى ، يعملون منفصلين حتى الوقت الحاضر ، فإني أدعو أولئك وهؤلاء اليوم إلى التعاون . وسأقدم بنفسي في هذه السن المتقدمة مثلا لكيفية أنجاز هذا العمل . فأنا ، مثلا مشترك مع الرفيقة نادزهدا بتروفنا برسيانتزفا (وتشتغل بحلب الالبان) فى تأليف كتاب يبحث فى « كيفية الحصول على أكبر كمية من اللبن من بقرة » . وأعتقد إذا صادفنا النجاح في هذا العمل المشترك ، ولا أشك في انه سيصادفنا ، سنخرج عملا لم يسبق ان أنتجت مثله خلال الأعوام الستة والثلاثين التى مضيتها فى النشاط العلمى والعملى » .

---

(١) الستخانوفيون : م العمال الذين يتبعون الطريقة الستخانوفية في العمل . أبدعها « الكسي ستخانوف » أحد عمال الفحم في الاتحاد السوفيتي . وتتلخص الطريقة كما يقولون مبدعها فى انها « ملاءمة بين العقل واليد أثناء العمل » . وتهدف إلى زيادة تنظيم العمل والحصول على وفرة فى الانتاج ، بدراسة الآلة وطبيعة العمل واستخدام هذه الدراسة فى زيادة الانتاج . وكان من أثر النجاح المنقطع النظير الذى أحرزته هذه الطريقة في التنظيم العلمي للعمل فى جميع ميادين الانتاج ان استحق مبدعها حمل وسام لنين .

غير انه يجب الا يقتصر التقريب بين العلم والعمل على هذا النحو فحسب. اذ ينبغي أن يقرب العلم نفسه من الجماهير بربطه بالأدب والفن. وفى هذا المجال أيضاً يتقدم الاتحاد السوفيتى بخطوات كبيرة وقد أشير إلى بعضها فى مقال طريف فى مجموعة «آداب شعوب الاتحاد السوفيتى».

(٢)

«المذهب الواقعى الاشتراكى» فى الادب

هذه الوحدة نفسها بين النظر والعمل التى تدفع بالعلم السوفيتى إلى الارتقاء، تبعث على أنحاء مختلفة، الازدهار فى الأدب السوفيتى, وقد كان هذا أحد المباحث الأساسية فى المؤتمر الذى عقد حديثا (١٩٣٤) لكافة أدباء الاتحاد السوفيتى (قارن بوجه خاص ما قام به جوركى).

وأن تاريخ الأدب فى المجتمع الطبقى ليظهر لنا إلى أى حد انفصل عن حياة الجماهير. وعلى النقيض نرى أن تاريخ الأدب السوفيتى، على قصر الفترة التى قطعها، تاريخ اقتراب الأدب من الجماهير اقتراباً متزايداً، ومحاولة واعية لتصوير صراع الشعب الذى يتألف منه المجتمع الاشتراكى.

نمى الأدب السوفيتى وكذلك الأدب الثورى الناشىء الآخذ فى النمو فى البلاد الرأسمالية من اختلاط منهلين يزيد كل منهما فى ثراء الآخر ؛ الأدباء الثوريون الذين تحولوا من البورجوازية إلى جانب العمال من جهة، والأدباء البروليتاريون الذين نشأوا بشكل مباشر من صفوف الطبقة العاملة والذين يعملون على التعبير عن آمالها، من جهة أخرى.

ويتطور الأدب السوفيتى تحت شعار «المذهب الواقعى الاشتراكى» وهو لا يعدو أن يكون النظرة المادية الجدلية موسعة ومطبقة على الأدب. وقد وجدت، كما يوحى بذلك العنوان، فروع أخرى «للمذهب الواقعى» كما وجدت بالطريقة عينها ضروب

أخرى من المذهب المادى إلى جانب المادية الجدلية . ولكن هذه الفروع الأخرى المذهب الواقعى فى الادب ترد فى الاصل، كل شىء إلى مستوى «المذهب الفردى» البورجوازى ، أى «رأى الفرد الواحد الذى يعيش فى مجتمع مدنى» وكان هذا كما بين ماركس فى كتابه «مقالات عن فويرباخ» حجر الزاوية فى المذهب المادى القديم . أما المذهب المادى الحديث فيعلو على هذا الاتجاه الفردى و نظرته هى نظرة «المجتمع البشرى أو الانسانية الاشتراكية» .

وقد أصبح المذهب الواقعى البورجوازى الذى ارتبط تاريخيا بمظاهر التقدم فى المجتمع البورجوازى يبغى «التملص» الآن من جميع المسائل والهروب من الواقع. أما الادب الذى لا يزال يرغب فى أن يكون واقعياً ففى وسعه المحافظة على هذا الاتجاه فقط ، عن طريق تصوير التناقض الاجتماعى العميق الكائن فى الحاضر . على أن التصوير الصادق لهذه التناقضات يجب ألا يكتفى باظهارها «فى ذاتها» فحسب بل كما تظهر فى اتجاهات التطور الناشىء عنها . أعنى أن مثل هذا المذهب الواقعى الاشتراكى . يجب وأن يكون جدلياً بحتاً وينبغى أن ينهج فى قراره نهج المذهب الواقعى الاشتراكى .

فالمذهب الواقعى الاشتراكى ليس معنـــــاه فهم الواقع كما هو فحسب بل معناه أيضاً ادراك الاتجاه الذى يسعى فيه والعلة فى ذلك . فهو يتحرك نحو النظام الاشتراكى وهو يتحرك نحو انتصار البروليتاريا الدولى . ويصور الانتاج الفنى الذى يبدعه الاشتراكى الواقعى إلى أى شىء يؤدى صراع المتناقضات الذى شاهده الفنان فى الحياة ثم عبر عنه فى عمله .

(٣)

نحو مجتمع شيوعى

باتباع المادية الجدلية طريق تحطيم الفواصل بين النظرية العلمية والتطبيق العملى وبين العلوم المختلفة نفسها ، تصبح أمامها مهمة جسيمة هى بيان طريقة اعادة بناء العلم، من جديد. ومثل هذا العلم الذى أعيد بناؤه سوف لا يقتصر على أن يعرض صورة موحدة

للعالم لأول مرة بدلا من سلسلة من الصور المتعارضة التي نحصل عليها الآن (كما بين ليفي). بلى سيصير أيضاً، في عناصره الاساسية على الاقل، ملكا مشاعا للانسانية بأسرها وأول مظهر مشترك للانسانية في التاريخ.

وبهذه الطريقة ستتحقق تلك الصفات المميزة لأعلى مرحلة في المجتمع الشيوعي والتي تنبأ بها ماركس، قال:

« في مرحلة أعلى من مراحل المجتمع الشيوعي، بعد زوال المنزلة الثانوية التي تسترق الأفراد في ظل تقسيم العمل وزوال التناقض بين العمل الذهني والفيزيقي بزوالها كذلك، وبعد ان أصبح العمل نفسه الضرورة الأولى للحياة بعد ان كان مجرد وسيلة للحياة، وبعد ان ازدادت أيضاً قوى الانتاج مع تطور الفرد من جميع الوجوه وفاضت جميع منابع الثروة التعاونية بغزارة — في هذا الحين فقط يمكن تماما ان يطرح أفق الحق البورجوازي الضيق ظهريا وينقش المجتمع على أعلامه: من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجاته! » (١)

وان تطور مذهب ستخانوف في الاتحاد السوفيتي بانتاج وفرة من السلع وهو الاساس المادي الضروري، للنظام الشيوعي «وبتحطيم الفواصل بين النظرية والتطبيق في الوقت نفسه، ليمهد السبيل أمام هذه المرحلة العليا للمجتمع، حين «يمكن تماما أن يطرح أفق الحق البورجوازي الضيق ظهريا».

(٤)

المذهب الاشتراكي والاخلاق

لما كان الموقف الاشتراكي حيال مسائل الاخلاق والآداب العامة يساء فهمه في أغلب الاحيان فيهمنا أن نعالج هذا الموضوع بشكل خاص. «كثيراً ما اتهمتنا البورجوازية بأننا نحن الشيوعيين، ننكر كل المبادىء الاخلاقية. وهذا أحد مناهجهم في تشويش الاغراض وذر الرماد في عيون العمال والفلاحين. فعلى أي نحو ننكر

---

(١) ماركس: نقد برنامج جوتا، ص ٨١.

الاخلاق والآداب ؟ أننا ننكرها على النحو الذى تبشر به البورجوازية ، النحو الذى يستمد هذه الاخلاق من الوصايا الآلهية » .

ترى الماركسية أن القوانين الاخلاقية ككل فروع المذاهب الفكرية الاخرى تمد أصولها إلى مصالح طبقة معينة . وهى بكشفها لاصل الاخلاق البورجوازية على هذا النحو ، تساعد البروليتاريا بطبيعة الحال على محاربة تأثيرها الاستبدادى . ولكن هذا الموقف لا يشبه عصف البورجوازية الصغيرة بكل المبادىء الاخلاقية إلا بقدر ما يخلط بين معارضة المذهب الماركسى للدولة البورجوازية والموقف الفوضوى الذى تتخذه البورجوازية الصغيرة فى معارضة الدولة اطلاقا . فالماركسية فى ميدان الاخلاق، كما هو أمرها فى جميع الميادين الاخرى ، يتحتم عليها أن تشن « حرباً فى جبهتين » .

ولعل الحركة الاشتراكية نفسها ، التى تقوم على الصراع الطبقى ، أن تكون فى حاجة إلى أتجاه أخلاق أدبى (أو « قانون ») تمليه مصالح هذا الصراع الطبقى . فهى تحتاج ضرورة إلى تنمية احساس قوى بالتضامن الطبقى وإلى رغبة صادقة من الفرد فى أن ينحى مصالحه الخاصة المؤقتة ، ليقدم مصالح الصراع الطبقى الباقية (وهى فى نفس الوقت مصالح الفرد الدائمة) . وللاخلاق أهمية خاصة للحزب الثورى الذى يأخذ على عاتقه فى جميع مراحل الصراع تمثيل المصالح الطبقية للعمال وتمثيل مستقبل الجنس البشرى خلالها . وواضح ان الحزب الثورى لا يمكن أن يسمح للنزعات الفردية فى البورجوازية الصغيرة أن توجد فى قلبه ، اذ انها تضعف من قدرته على الصراع .

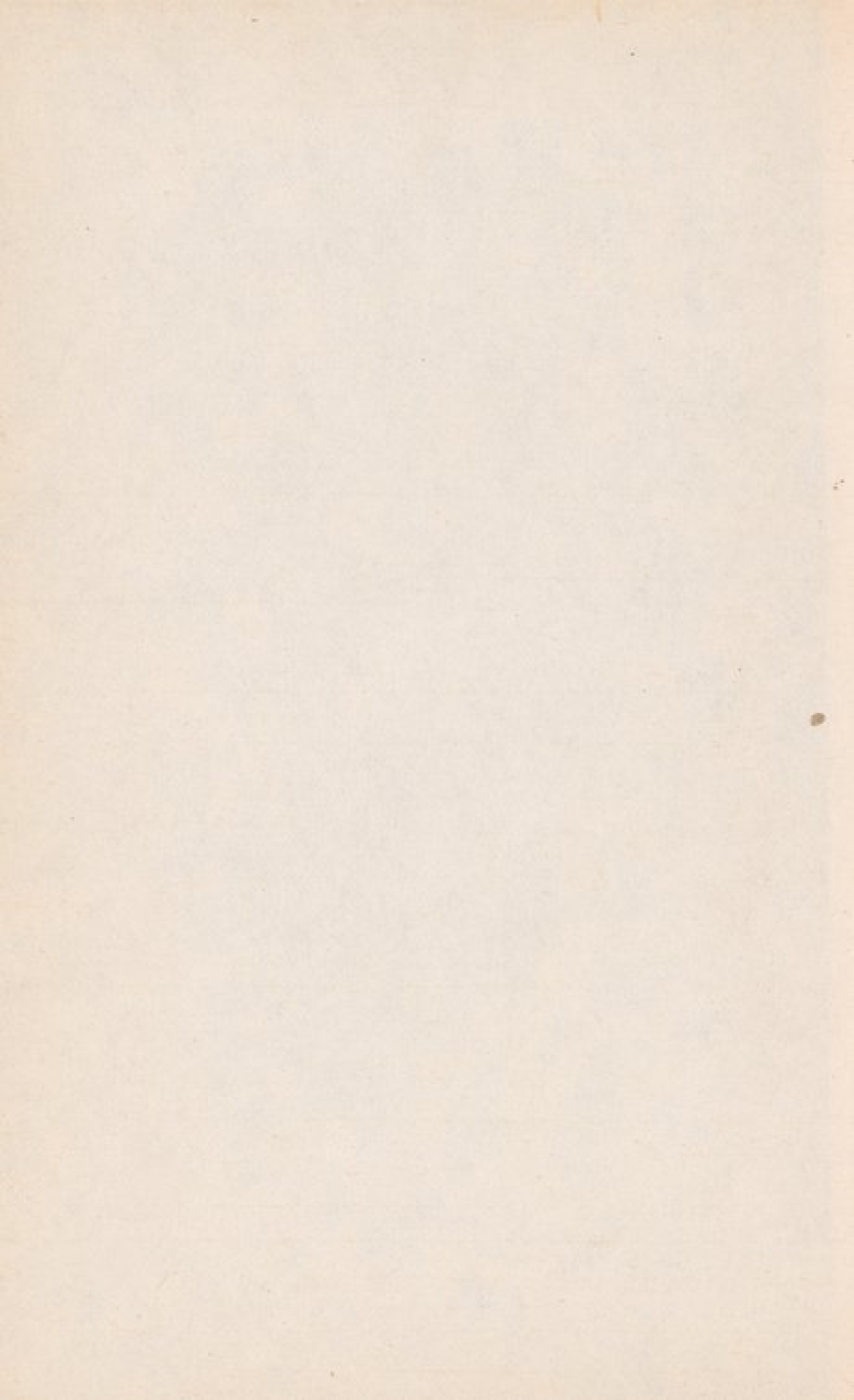
هذه الاخلاق الاشتراكية ، التى تبزغ أول ماتبزغ من الصراع الطبقى فى ظل النظام الرأسمالى انما تبلغ أوج ازدهارها فى المجتمع الاشتراكى . ولكنها حتى فى تلك الاثناء لن تصير ساكنة . فلكل مرحلة من التطور الاشتراكى تطور يوائمها فى التصورات الاخلاقية أى فى « الرأى العام » الاشتراكى . ويظهر

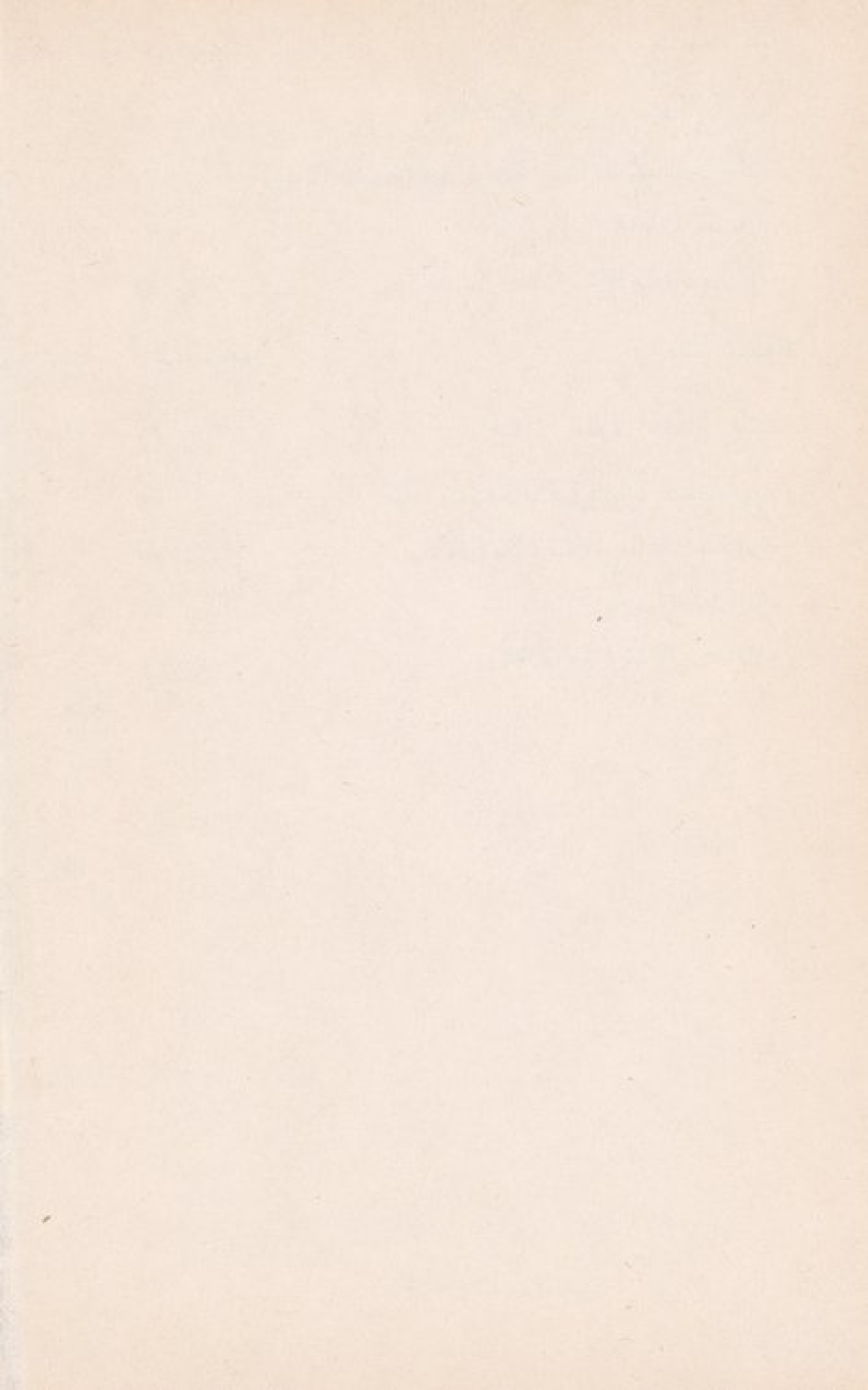
هذا بوضوح من تغير النظرة إلى العمل فى الاتحاد السوفيتى فى السنوات الاخيرة.
ويظهر بوضوح أيضاً من التعديلات الاخيرة فى قانون الزواج السوفيتى
التى جاءت نتيجة لاضطراد الرخاء فى الاشتراكية ولارتقاء القيمة الانسانية.
ومما يدل على ضيق الافق — حتى فى التفكير البورجوازى « المتقدم ! » — ان
الصحافة المتحررة لم تجد فى الارض التى تعطى الجميع فرصاً لاحد لها والتى
يندر فيها السكان ندرة تامة — سبباً يدعو إلى أكثار السكان سوى الحاجة إلى استخدامهم
وقوداً للمدافع !...

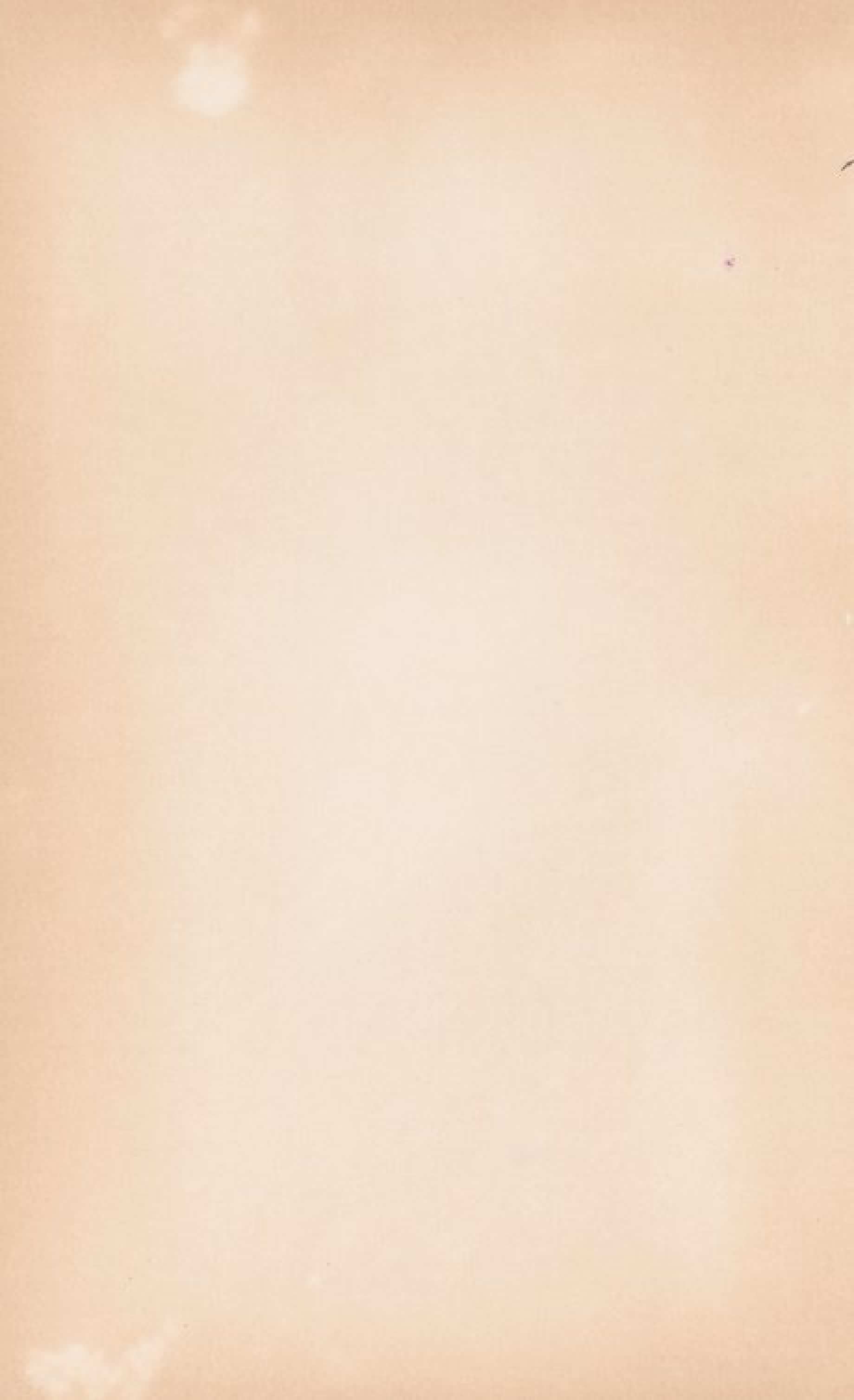
تصويب الاخطاء

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٧	٥	لتأيد	لتأييد
٧	١١	طبيعى	طبيعياً
٨	٨	تنشأ	تنشأ
٨	٢٥	م	أم
٩	١٩	الدى	الذى
٩	٢٢	أعمالها	أعمالها
١٠	٩	تشكوون	تشكون
١٠	٢١	تعبير	تعبيراً
١٣	٢٣	المجردون	المجردين
١٦	٢٦	هولباج	هونباخ
٢٢	١٩	ول	أول
٣٥	١٥	البحت	البحث
٤٠	١٣	بيظريتهم	بنظريتهم
٤٢	٨	تادرة	قادرة
٤٧	٧	رأسمال	رأسالمال
٥٠	٨	الاختيار	الاختبار
٥١	٢٠	تساوى	يساوى
٥٦	١	ويعنبنا	ويعنينا
٥٨	١٩	التى	الذى
٦١	١٢	يترايد	يتزايد
٦٤	٥	بعيد	بعيداً

فهرس







DATE DUE


محمد ،محمد اسماعيل
الفلسفة المادية الجدلية
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01019919

